رواية

2020
4.1.2020

آليس ووكر

امتلاك سرّ البهجة

ترجمة: دلال نصر الله
مراجعة: زياد عبد الله

أليس ووكر

امتلاك سرّ البهجة

ترجمة : دلال نصر الله

مراجعة : زياد عبد الله

امتلاك سرّ البهجة

رواية

اسم المؤلف: أليس ووكر

عنوان الكتاب: امتلاك سرّ البهجة

ترجمة: دلال نصر الله

مراجعة: زياد عبد الله

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2018

Author: **Alice Walker**

Title: **Possessing the Secret of Joy**

Translated by: **Dalal Nasrallah**

Reviewed by: **Ziad Abdullah**

Cover Designed by: **Majed AL_Majedy**

P.C.: **AL_Mada**

First Edition: **2018**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

POSSESSING THE SECRET OF JOY by Alice Walker.
Copyright © 1992 by Alice Walker. By arrangement with the author. All rights reserved.

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

مدخل:

شأن الأم

أحب أن أروي هذه الحكاية لغرابتها. كنتُ والمخرجة براتيبا بارمر على متن طائرة تقلنا من تاميل إلى أكرا في غانا، غرب إفريقيا، ولم يكن من طائرة سواها، والبديل عنها قيادة السيارة لسبع ساعات على طريق وعرة سبق أن اختبرناها قبل عدة أيام حيث تكبدنا كل ما يخطر على البال من منغصات، وحين وصلنا مقصدنا كان الجوع والحر قد أعيانا وغطانا الغبار الأحمر.

كانت طائرة نقل عسكرية قديمة، مطليّة باللونين البني والأخضر للتمويه. قالت براتيبا إنها أشبه بعلب الصّفيح. خلت الطائرة من المقاعد، وعثرنا على مكان مخصص لأمتعتنا وكاميرات براتيبا الكثيرة، وأحاط بنا المسافرون على متنها مع أطفالهم، ودجاجاتهم، وماشيتهم. كان الإحساس بأن قرية تحلق في الأجواء مبعث طمأنينة في الواقع.

صعقنا مع إقلاع الطائرة اكتشاف أنها لا تحتوي على نوافذ، بل فتحات بلا زجاج أو بلاستيك، مؤطرة بالمطاط الذي يثبت عليه الزجاج عادة. سددنا الفتحات بأيدينا، ثم لاحظنا أنها تطير على ارتفاع منخفض، بضع مئة من الأقدام فوق قمم الأشجار.

لم نتجرّأ على النّظر إلى مقدمة الطائرة لنحدد موقع الطيار، ونحن نسمع ضحكه ومزاحه مع شخص خلفه. أحسب أننا صلّينا. وحدقنا ببعضنا البعض حين تثاقلت الطائرة. قال أحد ممن كانوا معنا: حسناً، ها نحن نقوم بالرحلة الأخيرة، فرادى أو جماعات، فسأله آخر من دون تَردّد: ألا تستحق

هذا العناء؟ بلى، أجابه، فنحن في شؤون تتعلق بالأم. إن وقفنا ستساندنا وإن سقطنا ستتلقفنا. ورأينا من حولنا يتبادلون التهاني والابتسامات ويتناقلون أشرطة الأفلام التي التقطتها براتيبا، واللوز، والموز، والفول السوداني. لقد كانت رحلة قصيرة.

لا شك أن وجود الفول السوداني قد ذكر بارتيبا بسفرة سابقة لنا إلى إفريقيا في شؤون تخص الأم، وذلك قبل بضع سنوات حين كنا ننجز فيلمنا: **علامات المحاربات: بتر الأعضاء التناسلية الأنثوية وتضليل النساء جنسياً**. مررنا حينذاك بتجربة لا يمكن نسيانها. سافرنا في شاحنة صغيرة مغلقة من غامبيا إلى السّنغال على طريق قد تغدر بنا في أي لحظة، وقد اختارت أغلب مركبات النقل التعثر على جانبي الطريق بدل القيادة في منتصفه. مررنا بشاحنة ضخمة مقلوبة ومحمّلة بالفول السوداني. لم تصدق بارتيبا ابتهاجي – لا لأن الشاحنة قد انقلبت، ولم يُصَب أحد لحسن الحظ – بل لرؤية تلك الكمية الهائلة من الفول السوداني. وبدا لي أن الفردوس ماثل في الجلوس والاستلقاء قرب ذلك الجبل الحقيقي من مكسرات عشقتها منذ نعومة أظفاري.

الآن، وبعد عقد من الزمان، نعود من أجل محاضرة عن بتر الأعضاء التناسلية الأنثوية المحظور، تقام في قرية صغيرة ومغبرة اسمها بولغاتانغا في غانا، حيث اجتمع رجال ونساء أفنوا حياتهم ساعين إلى استئصال عادة استمرت قروناً، في كثير من البلدان الإفريقية والثقافات التي تدعو لبتر أعضاء الفتيات والشابات. ثلاثة أيام من الشهادات المتوتّرة، الكثير من الحزن، والغضب، والانتحاب، والتّفهم. كنا أنا وبارتيبا من بين الباكيات لأكثر من مرة أثناء الاجتماعات، فمن المؤثر أن يأتي كل هؤلاء الأفارقة من شتى البقاع المختلفة، لمناقشة إنهاء شيء ضارب في جذوره في مجتمعاتهم، تاركاً ندوباً لا تشفى، ومقوضاً صحة وسلامة القارة الإفريقية ذاتها. بكينا على كل شيء، صدقاً. غضب شابة طردتها أمها من المنزل لأنها رفضت أن تخضع ابنتها للبتر: حملت طفلتها بين ذراعيها، وتحدت والديها وكل الأهالي

لتحمي حق ابنتها بأن تكون كاملة. حرقة صديقنا الحميم في التّجمع، رجل طويل، وهزيل، وشهم من غانا، ويرأس منظمة العفو الدولية فيها، والذي فطر قلوبنا بقصته عن جرح وجهه. وتلك المرأة المتأنقة ببذخ، القاضية من مالي، التي حدثتنا ببلاغة عن ختان بناتها على مرأى ومسمع أمها، أي جدتهم، أثناء سفرها. وجوه الحضور العامرة باليقظة كانت تستحق عناء السفر. وكنا موضع ترحاب والجميع تقريباً عانقنا. بعد أن عرضت بارتيبا فيلمنا، ساد شعور بهيج لكوننا في رحلة واحدة معاً، ولأننا تشاركنا مع النساء مشاهدة الفيلم، وأننا سنشهد نهاية تلك الممارسات في يوم ما، وإن لم يكتب لنا ذلك في حياتنا، بل مع الأجيال القادمة.

كنتُ في العشرين من العمر فقط عندما سمعت للمرة الأولى شيئاً عن ختان الإناث، وكان ذلك أثناء مساهمتي في بناء مدرسة للأطفال قرب تيكا، في كينيا (استخدمنا سيقان نبات السيزال على أنقاض مبنى هجره المستعمر البريطاني). كنت في مقتبل العمر وجاهلة بالهيمنة الأبوية على النساء حتى أفهم ما سمعته. إضافة لذلك، بتر ماذا؟ ولماذا؟ ومضت عشرون سنة مكّنت فيها نفسي، من خلال الدراسة، والسفر، ومحاورة نساء مختونات، وقبل سنوات على عملي محررة في مجلة Ms. Magazine، وهي المجلة النسوية التي شجعت فتح باب النقاش العلني حول هذا الموضوع من خلال نشر مقالات بين الفينة والأخرى تناهض هذه العادة، بادئة العمل على ما اعتبرته ـ بكل أمانة ـ يخصني منذ اللحظة الأولى التي سمعت فيها «شيئاً» عن عادة ختان الإناث. لكن لماذا أنا؟ لأن هذه المعلومة استقرت في أذني، فهزت كياني، وسكنتني وما فارقتني يوماً، ولا لمرة واحدة على مرّ تلك السنوات؟ أصدّق بوجود هكذا هبات.

وهكذا، بمباركة أجدادي الأفارقة في أمريكا المتجسدة على هيئة الكِتاب الذي حقق مبيعات هائلة **اللون أرجواني**، وبعد تأليف روايتي الضخمة والقريبة من قلبي **معبد أليفتي** ـ والتي جاءت بمثابة شكر للأجداد ـ خضت غمار كتابة **امتلاك سر البهجة** التي بدأتها من أرضية طائرة أقلعت

من غانا. كنت سأكتب هذه الرواية على أي حال، لكن يا لمتعة امتلاك المال الكافي، والمساحة، والوقت لأمنحها اهتمامي الكامل. لم أكن أدرس أو أحاضر، كما كنت أفعل خلال كتابة **اللون أرجواني**. لم أكن قلقة على دفع فواتير التدفئة أو دفعات السيارة، أو رسوم المدرسة، أو إن كان علي شراء حذاء مطري هذا الشتاء أو تأجيل ذلك، أو إذا كان بمقدوري شراء نظارة طبية جديدة؟ كان تلقي دعم نساء ورجال هذه الرواية نعمة من النعم، وهم يتجسدون أمامي على الورق من لحم ودم بعد أن عاشوا وقتاً طويلاً كأطياف وأرواح معذبة في عقلي الواعي.

يطلعنا العالم يومياً على المزيد من الحقائق الشاقة فيه. ويبدو أن التشجيع على معاينة المشاكل عن كثب جزء من مهمتي. كثير ممن قرؤوا هذه الرواية لم يكونوا مستعدين للعالم الذي تعريه. أتفهم هذا. أتذكر براءتي في العشرين من عمري، عندما لم تتوفر لي مساحة أضع فيها معلومات عن العنف ضد المرأة الذي لم يسبق لي معرفته وصعقني ببشاعته. ومع ذلك، يعتبر هذا الكتاب بالنسبة للنساء اللاتي يتمنين التّفاعل مع الناس وكنّ منغمسات في معاناة بتر الأعضاء التناسلية الأنثوية، منطلقاً جيداً لنشر الوعي عن الموضوع، وإن كان فقط عبر نقد طريقة تناولي للقضية (وقد فعل ذلك بعض القراء، متفهمة رأيهم دون الامتعاض النابع من الحاجة الفطرية لحماية شعب إفريقيا، التي حطمها لوقت طويل التحوير والاستخفاف. بذلت قصارى جهدي في موضوع يشكل تحدياً لي. ولعل اختزالات الكتابة قد ترى كمواجهة لفداحة هذا البلاء).

بعد رواية **امتلاك سر البهجة**، طلبت من بارتيبا أن تخرج فيلماً أساهم فيه معها يتناول هذه الممارسة. **علامات المحاربات** غدا مغامرة عنيفة آتت أُكلها، كانت جولتنا للترويج له في عدد من البلدان الإفريقية وأوروبا، وأيضاً في إنجلترا، واليابان، وكوبا، والولايات المتحدة الأمريكية مثمرة. تحدثنا عن الموضوع من مدينة إلى أخرى لعدد من السنوات. وبالعودة لعامي العاشر من حملتي المناهضة لختان الإناث ومنحها كل جهدي، أدركت أن علي

الانسحاب والتّراجع، وذلك أثناء محاكمة في باريس لامرأة من غامبيا نزفت ابنتها الرضيعة بعد أن ختنتها «خاتنة» التقتها في الحديقة. فقذفت نيران الصراع العالمي المتزايد والمتواصل بأثقالها عليّ. لم يكن إخمادها سهلاً. كانت معرفة عميقة ـ كالعديد من الكوارث الطارئة على الكوكب ـ تستلزم جهود الجميع لقلب المسائل. كانت معركة في غاية الاستنزاف، فبدلاً من اقتلاع الختان من جذوره، صرتُ موضوع خطابات الكثير من الناس. بعد سنوات من كتابة **امتلاك سر البهجة**، قال بعضهم إنني اختلقت الأمر برمته، وتظاهروا ضدي في أكثر من حرم جامعي حيث اتّهمت بطعن إفريقيا، ورجالها (ونسائها العفيفات). وكان منهم من افترض أني أسعى للتّحكم بالموضوع وأمارس وصايتي عليهم من باب الغيرة، وتحول النقاش إلى جدل في عدة أماكن. طبيبان أخبراني لاحقاً أنهما يختنان الفتيات في الولايات المتحدة وانتقداني بقسوة. أرسل لي أحدهما صورة طفلة شفيت بعد الجراحة كإثبات على نعومة المكان ونظافته بعد الختان.

ورغم انسحابي من ميدان مناهضة الختان قبل سنوات قليلة، سيشعر القارئ بعشقي لشخصيات الرواية، حتى أكاد أعانقها. الحب المرن الأزلي هو ما يجعل الإبداع ممكناً. لقد حاولنا أنا وبراتيبا ولم ننجح حتى الآن في إثارة اهتمام صنّاع الأفلام على إنتاج فيلم عن هذه الرواية. نحن واثقتان من أن الفيلم سيوقف في ليلة وضحاها ممارسة بتر الأعضاء التناسلية الأنثوية في بقاع كثيرة من الأرض، في مدن في الغرب وإفريقيا على سبيل المثال. هذه هي القوة الكامنة في السينما والمؤثرة على حيوات البشر، خاصة على حياة الأميّين. لن نيأس من إمكانية إنجاز هذا المشروع التعاوني، ونحن على أتم الاستعداد له.

ما معنى **امتلاك سر البهجة**؟ أين يمكن العثور على السر؟ وأين علينا البحث عنه؟ حين أستعيد الماضي أرى لحظات تجلى لي فيها سر البهجة وبدأت أرقص رقصته، وفي هذه الرواية نقلت سرّ امتلاكه للقارئ. يرتكب البشر أموراً مروعة ببعضهم البعض، ومع ذلك فإن لنا أن نكون

ممن يحتكمون على علاج، ففي أحلك تأملاتي في هذه الممارسة التي تؤثر في مليون امرأة وفتاة، وتخلف مزيداً من الضحايا كل يوم، اعتمدت على حكمة وكرم كثير من الأطباء والطبيبات النفسيات. د. كارل جونغ واحد منهم، دخل القصة باسم ميزي، «العجوز»، الذي يوجّه تاشي بلطف (حبيبة وزوجة آدم في رواية **اللون أرجواني**). تاشي التي خُتنت وأصيبت بعلّة نفسية. فكرتي المفضلة عن معاناة كوكبنا كامنة في أن كثيرا منّا يعرفون صعوبة الرّحلة التّي نحن على متنها ومباهجها ومنعطفاتها المثيرة، ولهذه نجهّز أنفسنا، بالضرورة، لمواجهة الصدمات ومواصلة دربنا.

أليس ووكر
تمبل جوك هاوس
ميندوسينو، كاليفورنيا
خريف 2007

«من الناس من يعتقد أن السود يمتلكون سر البهجة وهو ما سيساعدهم على تجاوز أي انهيار روحي أو أخلاقي أو جسدي».

يطيب لي دائماً مرافقة الأفارقة، لكن التّحكم بالعاملين في المزرعة أمر مختلف، وقد عرفَنا الكثير منهم أطفالاً. ومع تجربتي الإضافية المتمثلة بالسفاري بت أفهم أكثر شيفرات: «الميلاد، والجنس، والموت» التي عاشوها. الأشخاص السّود طبيعيون، إنّهم يمتلكون سرّ البهجة الأكيد، الذي مكّنهم من البقاء على قيد الحياة رغم المعاناة والذّل الواقعين عليهم، وما يسهّل التعايش معهم ماثلاً بكونهم أحياء بدنياً وعاطفياً. ما عجزت عن التعامل معه كان دهاءهم وغريزتهم الفطرية لحفظ ذواتهم.

ميريلّا ريكّاردي،

الملحمة الإفريقية، **1982**.

وقف الولدان معنا خلال مراسم الزفاف البسيطة في لندن. وفي تلك الليلة، وعقب العشاء، أخبرتني أوليفيا ونحن نتهيأ للنوم، عمّا كان يقض مضجع أخيها. إنه يفتقد تاشي.

وقالت أيضاً: وهو غاضب منها جداً لأننا حين غادرنا، كانت تخطط لإحداث ندبة في وجهها.

لم أكن أعرف بهذا. من إحدى الأشياء التي اعتقدنا بأننا أسهمنا في إيقافها كان إحداث ندبة أو خدش يوشم العلامات القبلية على أوجه الشابات.

قالت أوليفيا: إنها طريقة يظهر من خلالها سكان أولينكا أنهم لا يزالون أوفياء لتقاليدهم الخاصة. رغم استيلاء الرجل الأبيض على كل شيء آخر. لم ترغب تاشي بفعل ذلك، لكنها أذعنت لرغبة من حولها. وقالت بأنها ستشارك في طقوس الانتساب إلى عالم النساء.

قلت: أوو، كلا. هذا خطير. لنفترض أنها أصيبت بالعدوى؟

قالت أوليفيا: أعلم. أخبرتها أنه لا يوجد في أمريكا أو أوروبا من يقتطع جزءاً من جسده. وعلى أي حال، كان من المفترض أن تفعل ذلك عندما كانت في الحادية عشرة من عمرها. لقد أصبحت كبيرة جداً على ذلك الآن.

قلت: يختن بعض الرجال، ولكن هذا لا يتجاوز بتر قطعة صغيرة من الجلد.

قالت أوليفيا: كانت تاشي سعيدة بأن طقس الانتساب لا يحدث في أوروبا أو أمريكا. فهذا يعلي من شأنها بالنسبة إليها.

قلت: أفهم ذلك.

اللون أرجواني، **1982**.

عندما جاء الفأس إلى الغابة، قالت الأشجار إنّ قبضتك مصنوعة منّا.

بومبر ستيكر

الفصل الأول:

تاشي

لم أتبين منذ أمد بعيد بأنني ميتة.

وهذا ما يذكرني بقصة: ذات يوم كانت هناك كشماء[1] شابة وجميلة تتشارك وأنثى أخرى زوجاً. كان اسمها لارا وكانت حزينة لأن زوجها وزوجته الأخرى يهيمان حبّاً ببعضهما، وما اللطف معها إلا واجب فرضه مجتمع النّمور عليهما. لم يرغبا حتى بالاعتراف بها كزوجة شريكة، طالما أنهما في غاية السّعادة، فهي أنثى «زائدة» في المجموعة لا فائدة منها. كان زوجها يتنشّق أنفاسها وانبعاثاتها، حتى إنّ معاشرته نادرة لها. لكن كلّما حدّث ذلك، تغار الأخرى وتحزن، وكان اسمها لالا، وتمضي تتشاجر مع زوجها بابا، ثمّ يتعاركان، ويزمجران، ويعضّان، ويلوّح كل منهما بذيله أمام عيني الآخر. وسرعان ما يسأمان فيتشبثا بمخالب بعضهما باكيين.

– يفترض أن أعاشرها، كان بابا يقول للالا، الشريكة التي اختارها قلبه. إنها زوجتي تماماً كما أنت زوجتي. لم أخطط أن تسير الأمور بهذه الطريقة. وهذا هو التّدبير الذي قُدّر لي.

قالت لالا والدّموع تترقرق من عينيها: أعلم يا عزيزي، وحتماً ليس للألم الذي اعتراني داع.

وجلسا على الصّخرة في الغابة بائسين. وكانت لارا، غير المرغوب بها،

---

1 – أنثى الفهد. المترجمة.

حاملاً ومعتلة ومفطورة الفؤاد. فالجميع يعلم أنها غير محبوبة، ولا ترغب أي أنثى فهد أخرى مشاركة زوجها معها. ومضت أيام لم تسمع فيها إلّا صوتها الدّاخلي.

وسرعان ما أصاخت له.

قال لها: لارا، اجلسي هنا، حيث يتسنّى للشّمس تقبيلك. وفعلت ذلك.

قال لها: لارا، استلقي هنا، حتى يعاشرك القمر طيلة الليل. وفعلت ذلك.

قال لها، ذات صباح مشرق وهي موقنة بأن تم تقبيلها ومعاشرتها بشكل جيد: اجلسي هنا على هذه الصّخرة وشاهدي ذاتك الجميلة في ماء هذا الجدول الرّاكد.

وبهدوء منحه إيّاها هَدْي صوتها الدّاخلي، جلست لارا على الصّخرة ومالت على الماء. استقبلتها صورتها بأنفها الصّغير الباذنجاني، وأذنيها الحادّتين الرّقيقتين، وفرائها الأملس النّاعم. كانت جميلة! قبّلتها الشمس بإتقان وعاشرها القمر على أكمل وجه.

وليوم كامل، كانت لارا على أتمّ الرّضا. عندما سألتها الزوجة الأخرى بخوف عن سبب ابتسامتها، فتحت شدقيها أكثر بتجّهم. ركضت الزوجة الأخرى المسكينة مبتعدة وهي مرتعدة الفرائص وعثرت على زوجها، بابا، وجرّته إليها.

عندما شاهد بابا الابتسامة، وعلائم التقبيل والمعاشرة المتقنين على لارا بالكاد انتظر ليضع مخالبه عليها! كان يعلم علم اليقين أنّها تحب شخصاً آخر، مما هيّج مشاعره.

وبينما كانت لالا تبكي، تمكّن بابا من لارا، بينما كانت تنظر إلى القمر من فوق كتفه.

وبدا للارا في كل يوم، أنّ لارا التي كانت في الجدول كانت لارا الوحيدة التي تستحق الامتلاك - في منتهى الجمال، تم تقبيلها ومعاشرتها بإتقان. وأكّد لها صوتها الدّخلي أنّ هذا حقيقي.

ولذلك، ذات يوم قائظ لم تتمكن فيه من تحمّل صرخات وآهات بابا ولالا وهما يمزّقان أذنيّ بعضهما بسببها، لارا، والتّي غدت غير مبالية بهما بتاتاً، مالت لارا - والتي غدت الآن غير مبالية بهما بتاتاً - وقبّلت انعكاس صورتها الساكن، وظلّت تقبلّها حتّى وصلت إلى أعماق الجدول.

أوليڤيا

هذه هي الطّريقة التي عبّرت بها تاشي عن ذاتها.

الطّريقة التي تحدّثت بها وتجنّبت الموضوع، حتى وهي طفلة. اعتادت والدتها كاثرين من قبيلة نافا، على إرسال ابنتها إلى بقالة القرية لشراء علبتي عود الثّقاب، وكان ثمن كل منهما بنساً واحداً. كانت الأم تعطي تاشي ثلاثة بنسات، وكانت الأخيرة تفقد أحدها على الأقل. أمّا القصة التي كانت تبتدعها عن البنس المفقود فهي كالتّالي: هجم الطّائر العملاق من السماء، بعد أن لاحظ قطعة النّقود اللامعة في كأس ماء احتفظتْ فيه مؤقتاً بالبنسات للمتعة الجمالية، صفق جناحيه بقوّة مما جعل كأس الماء يسقط من يدها، وهي تخفي وجهها عنه خوفاً من منقاره الضخم وجناحيه المفرودين. وحينما تعاود النّظر، يكون قد اختفى! دون أن يكون للبنس أثر!

أمّا والدتها فكانت توبّخها، أو تضع يديها على خاصرتها، وتهز رأسها حزناً وتبكي طلباً لشفقة الجيران من هذه الكاذبة العنيدة، ابنتها.

عندما كنّا في العمر ذاته - تاشي وأنا، في السّادسة أو السّابعة - أتذكّر عندما شاهدتها للمرة الأولى، كما لو أنّ ذلك قد حدث بالأمس. كانت تنتحب بدموع صنعت مساراً على وجهها المغبر. ولأنّ القرويين اجتمعوا للقاء المُبشّرتيْن الجديدتيْن، تكوّنَت سحابة حمراء ملتصقة في الرّطوبة. كانت تاشي تقف خلف أمها كاثرين، امرأة صغيرة الحجم ومحدودبة الظّهر، وعلى وجهها الأسود ذي التّجاعيد ملامح صارمة. في البداية شاهدتُ يد تاشي فقط، يد صغيرة سوداء وذراع، كذراع القرد، تصل إلى منتصف جسد

والدتها السّفلي وتقبض على التنانير الطويلة بلون الكركديه. وعندما اقتربنا أكثر ـ والدي ووالدتي وآدم وأنا ـ صارت أوضح وهي تختلس النظر من وراء جسد والدتها لتحدّق فينا.

لا بد وأننا كنّا مشهداً مهيباً. مشينا لأسابيع في سفر قادنا إلى قرية تاشي، وقد غطّانا الغبار والكدمات جراء الرّحلة. أتذكر أني رفعت رأسي نحو والدي وأنا أفكر في طبيعة المعجزة التي أوصلتنا ـ عبر الغابة، والسّهول، عبر الأنهار وأراضٍ كاملة مأهولة بالحيوانات ـ إلى قرية أولينكا التي تحدّث عنها كثيراً.

شاهدتُ أنّه هو الآخر قد لاحظ تاشي، فهو لا يقاوم الأطفال، وذكر أنّ ما من مجتمع سينعم بالسّعادة، إذا كان فيه أي طفل حزين. ولا مجتمع واحد! قال ذلك مراراً، وهو يضرب بكفّيه على ركبتيْه للتأكيد. طفل واحد يبكي هو التّفاحة الفاسدة في برميل القبيلة! كان من الصّعب تجاهل تاشي، لأن الكثير من الوجوه التي حيّتنا بدت حزينة، وكانت هي الشخص الوحيد الذي يبكي. ومع ذلك لم تصدر أي صوت. انتفخ رأسها الحليق ووجهها البنّي المُحمر باذلة مجهوداً عظيماً لتتحكّم بعواطفها، وباستثناء الدموع الغزيرة المتلاحقة إلى أسفل وجنتيها، فقد نجحت نجاحاً باهراً. يا له من أداء مميز.

اختفت تاشي ووالدتها طوال فترة الترحيب نهاراً. حتى إن والدي قد استفسرا عنهما. ما سبب بكاء الطفلة الصّغيرة؟ تساءل بلغة أولينكا الجامدة التي تعلّمها حديثاً. بدا أنّ كبار السن لم يفهموه. حملوا ثيابهم، ونظروا بلطف إليه وإلينا وإلى بعضهم ثم أجابوا، وهم ينظرون الآن إلى الرؤوس المجتمعة، أي طفلة أيها القس؟ لا توجد أي طفلة باكية هنا.

وبدا أنّ تاشي ووالدتها قد اختفتا للأبد. لم نشاهدهما زمناً طويلاً. وبعد أن أمضتا بضعة أسابيع في مزرعة أسرة كاثرين ـ والتي تبعد مسير يوم واحدٍ عن القرية ـ ظهرتا ذات مساء. ارتدت كل من تاشي ووالدتها جنّجنهام[1] ورديّ اللّون. رداء الأم بياقة عالية وجيوب كبيرة الحجم عليها

1- نسيج قطني مخطط. المترجمة.

ورود. تشابه ملامح وجهيهما دلّ على احتراز غريزي. وعلى وجه كاثرين ارتسمت ملامح الدّهشة كلما التقت «بالقس» كما كانوا يطلقون على أبي، أو «الأم القسّيسة» كما لقّبوا أمّي.

كنّا نجهل في صباح وصولنا إلى القرية أن إحدى أخوات تاشي فارقت الحياة في الوقت ذاته. اسمها دورا، وقد نزفت حتى الموت. هذا كل ما أخبروه لتاشي؛ وكل ما كانت تعرفه عن وفاتها. وهكذا، إذا كنّا نلعب، وشكّتْ شوكة إصبعها أو جرحت ركبتها وشاهدت دمها، تنخرط بالبكاء بذعرٍ، حتى بدأت تلعب تدريجياً بطريقة تجنبها المخاطرة، حتى إنّها تعلّمت الخياطة بحذر مبالغ فيه، باستخدام الكشتبانات.

وبمرور الزّمن نسيت تاشي سبب خوفها من مشاهدة دمها، وصار هذا الذّعر أحد أسباب تنمّر الأطفال معها، مما كان يدفعها للبكاء.

وبعد سنوات ـ في الولايات المتحدة ـ بدأت تتذكر بعض الأشياء التي أخبرتني بها على مر السّنوات خلال نشأتنا: أنّ دورا كانت أختها المفضلة، وكانت عنيدة ومزعجة، وكانت تحب العسل في الثّريد حباً جمّاً ما كان يدفعها لسرقة شيء من حصّة تاشي، وأنّها كانت في غاية الحماسة قبل وفاتها. وفجأة صارت محط اهتمام الجميع؛ تقدّم لها الهدايا بشكل يوميّ. أشياء مزخرفة تحديداً: خرز، وأساور، وحنة حمراء للشّعر وراحتا اليد، وقلم غريب الشّكل ولوح أيضاً، وبقايا أقمشة لعصابة رأس وفستان بألوان زاهية، ووعدٌ مستقبليّ بأحذية!

تاشي

عند زاوية فمها ندبة واهية ومتناهية الصغر، أشبه بظل، أو لعلّها موزة دقيقة، أو هلال، أو منجل رأسه موجّه إلى أذنها. إذا ما ابتسمَت، ينزلق الظّل الصّغير باتجاه وجنتها، فوق أسنان ناصعة البياض. عندما كانت تحبو، التقطت من النّار غصن شجرة متقداً وحاولت وضعه في فمها.

حدث هذا قبل وقت طويل من ولادتي، لكنّي عرفت القصّة لأنّها قيلت مراراً وتكراراً: كيف بدأت تدور مبهوتة، حين التصق الغصن بشفّتها، وكيف - عوضاً عن تخليصها منه - بكت بطريقة تثير الشفقة، ذراعاها ممتدان وهي تبحث عمّن يغيثها. وهل ساعدوها؟ لا، لقد ضحكوا، حتّى وهم يسردون هذه القصّة، لا لأنهم ساعدوها، بل لأنهم أنقذوها.

هل ساعدها أي شخص؟

خربش هذا الطبيب الحيزبون قليلاً خلف مكتبه، كان هناك حجر صغير وأشكال آلهة وربّات إفريقيات من الصلصال تعود لمصر القديمة. لاحظتُها قبل أن أستلقي على أريكته المغطّاة بسجّاد تقليدي.

أفكّر وأفكّر، لكن لا أستطيع تذكّر بقيّة القصّة. صوت القهقهات أوقفني قبل أن أتمكن من إنقاذ أختي دورا. أعلمُ أنّ الغصن ذا اللون الرمادي قد سقط رماده في نهاية المطاف، وقد احترق إلى الجلد. لكن هل وثبت أمي أو زوجة أبي نحو الطفلة الباكية واحتوتها بين ذراعيها؟ هل كان أبي قريباً في أي مكان؟ أنا محبطة لأني لا أستطيع الإجابة عن أسئلة الطبيب. وأنا أشعر بوجوده، هناك خلف رأسي، قلمه مستعد للتصديق

على الورق والتأكيد على إصابة امرأة إفريقية بالذّهان، تحقيقاً لمجد أعظم في مسيرته المهنية. أوليڤيا أحضرتني إلى هنا. لا إلى أبي التحليل النّفسي، لأنه فارق الحياة مرهقاً ومظلوماً، بل إلى أحد أبنائه، والذي كان يقلّده – بما في ذلك الشعر الدّاكن واللحية، تمثال صغير مصريّ على مكتبه، وأريكة مغطاة بسّجاد تّقليدي، وسيجار، رائحته كريهة – لربما تشفيني.

أوليڤيا

لا تنسيْنا، كانت تاشي تقول. وكنّا نضحك؛ لأنّ من السّهل نسيان إفريقيا في أمريكا. أغلب ما يتذكره النّاس كان غريباً، وعلى عكسنا نحن الاثنتيْن، هم لم يسافروا إلى أمريكا.

آدم

لا أتذكر لقائي الأوّل بتاشي، لعل هذا غريب. لكنّ الأطفال لا «يتعارفون» تماماً، هل يفعلون؟ ما لم تكن هناك مناسبة رسمية ـ والتي عند التّفكير فيها ـ لابد أنّها كانت مناسبة وصولنا إلى أولينكا. حينها، كان القرويون يبتسمون لنا متلهفين، وكانوا يرتدون أفضل ثيابهم البسيطة زاهية الألوان، كان هناك طعام يطبخ في قدور وآخر يشوى، وثمة مشروب دافئ بنكهة الشّمام جعلني أشتهي الليموناضة. لاحظتُ فتية صغاراً بعمري، ركبهم بارزة جدّاً ورؤوسهم حليقة، وشبه عراة. ولاحظتُ كذلك الرّجال: وشوم القبيلة التي تشبه البذور على وجناتهم وتمائم دهنية الملمس يرتدونها حول أعناقهم. لاحظت الغبار وارتفاع درجة الحرارة، والذّباب. لاحظتُ أثداء النّساء المتهدلة اللاتي يعملن وهن يكشفنها والأطفال على ظهورهن، وهنّ يكنسن ويرتبن القرية كما لو أنّ هناك تفتيشاً متوقعاً. كنتُ أصغر عمراً من أن أخجل من شبه عريهن. فحدّقتُ فيهن بفم فاغر، حتى ضربتني ماما نيتّي بقسوة في ظهري بمظلتها.

لكن الآن عندما تسألني أوليڤيا: ألا تتذكر يا آدم كيف كانت تاشي تنتحب عندما التقيناها! أحتار. فتلك ليست الفتاة التي في مخيّلتي. تاشي التي أذكرها كانت باسمة الثغر، تختلق القصص، وترفرف بسعادة في محيط عمل والدتها.

يُهيّأ لي أحياناً أنّني وأوليڤيا نتذكر إنسانة مختلفة تماماً. والآن، ولأنّي أعيش مع تاشي منذ سنوات طوال، أظن أنّ ذكرياتي عنها وهي طفلة هي الأدق حتماً. لكن ماذا إذا لم تكن كذلك؟

تاشي

كانوا يقولون لي دائماً عليكِ ألّا تبكي!

إنّهم أناس جُدد جاؤوا ليقيموا بيننا، واستقبالهم بالدّموع سيجلب لنا سوء الطّالع. سيحسبون أنّنا نضربكِ! أجل، نحن نتفهّم أنّ أختكِ ماتت، ولكن... حان الآن وقت النّسيان والتّرحيب بالأجانب، وإذا لم تُحسني التّصرف، سنطلب من أمك اصطحابك إلى مكان آخر.

كيف أصدق أنّ هؤلاء النّساء اللائي عرفتهنّ طوال حياتي هنّ النّساء ذاتهن اللائي كنّ يعرفن دورا؟ وكانت دورا تعرفهن؟ لقد درجت على ابتياع أعواد الثقاب أو التّبغ لهن كل يوم تقريباً، وكانت تحمل على رأسها دوارق الماء لهن.

كان كابوساً. صار الحديث عن أختي أو البكاء عليها أمراً لا يستساغ فجأة.

ـ لنغادر المكان، يا ماما، قلتُ أخيراً بيأس. أمسكت أمي ـ ووجهها متجهّم ـ بيدي ومشيْنا مبتعدتيْن باتجاه مزرعتنا.

بقينا هناك سبعة أسابيع، وقتاً طويلاً بعد رعاية محاصيلنا. ورغم وجود غلام يقيم في المزارع ليعتني بالأراضي إذا ما قررنا العودة للقرية، إلا أننا آثرنا البقاء أنا وأمي، حتى بعد عمليّة قلع الفول السوداني[1]، ونشره ـ والّذي يبدو باستدارته كقبعات من بعيد ـ لحين جفافه، وفصل الثّمار عن سيقانه الصّفراء الذّابلة وبعدها حملنا على ظهريْنا كميّة منه إلى القرية.

1- عملية حصاد الفول السّوداني. المترجمة.

كم شعرت بالصّغر، خاصة حين لم تعد دورا بجواري لأقارن طولي بها. وما عادت موجودة لتتندّر علي بأنّي كبرت قليلاً ربما بسماكة عملة معدنية ولكني لم أماثلها طولاً... أمّي هنا، تمشي على طول الدّرب أمامي، حولتها من الفول السوداني ضعف قدرتها.

لم أشاهد شخصاً يعمل بكد، أو ينجز حصته من العمل بكرامة مستكينة كوالدتي.

يا تاشي – كانت لتقول – لا يملأ الفراغ إلّا العمل الشّاق.

لكنّي لم أفهمها آنذاك.

أشاهد الآن ربطة ساقيها وألحظ شيئاً ينقبض بشدّة وهي تصعد منحدراً مائلاً؛ حيث توجد تلال كثيرة بين مزرعتنا والقرية. في الواقع، كان مناخ المزرعة يختلف تماماً عن مناخ القرية: حاراً ورطباً، لوجود نهر وقليل من الغابة حتى الآن، بينما كانت القرية حارّة وجافة، وذات عدد قليل من الأشجار. عاينت الجلد الميّت في كعبي والدتي، وشعرتُ بثقل موت دورا في قلبي جاثماً على روح أمّي، كالفول السوداني الذي أمال ظهرها. وبينما تنوء بحِملها، راقبتُ آثار قدميْها، وحرصتُ على أن أطأها، لألطّخ قدمي بالدّموع والدّم. لكن والدتي لم تبكِ قط كباقي النّساء، وعندما نادوها لتحيي الزّعيم ومستشاريه لم تتمكن من الانتحاب بصياح يهزّ الجنان العليا لعظيم ألمها.

تاشي

قال الطّبيب: تعتبر الزّنجيات أصعب البشر في تشخيص حالتهن بفعالية. هل تعلمين لماذا؟

وبما أنّي لم أكن امرأة زنجية ترددت قبل المخاطرة بالإجابة. شعرتُ بالاستنكار عندما أدركت أنّ طبيبي النّفسي لم يتمكن من رؤية أنّي إفريقية، وأنّ كل السّود بالنسبة له زنوج.

أزوره الآن منذ بضعة أسابيع. أتحدث في بعض الأيام، ولا أتحدث في بعضها الآخر. مقابل عيادته مدرسة ابتدائيّة. كنت أصغي لصوت أطفال خفيض وهم يلعبون وأنسى مكاني غالباً، كما أنسى سبب وجودي هنا.

تفاجأ الطّبيب عندما عرف أنّ لدي طفلة واحدة فقط. وجد هذا غير معتاد لدى النساء الملوّنات، سواء أكن متزوجات أم لا. شعب يحب إنجاب الأطفال، سمح لنفسه بالقول.

لكن كيف لي أن أتحدث مع هذا الغريب عن أطفالي المفقودين؟ وكيف فقدتهم؟ لا يمكن للمرء الحديث عمّا لا يعرفه.

- الزّنجيات - يقول الطبيب مخترقاً صمتي - لا يمكن تشخيصهن بدقّة لأنّهن لا يستطعن لوم أمّهاتهنّ.

- لومهن على ماذا؟ تساءلت.

- لومهن على أي شيء، قال.

إنها فكرة جديدة تماماً عليّ. وبشكل مفاجئ، شكّلت نوعاً من الانفجار في التّلافيف الكثيفة المكونة لعقلي.

لكنّي لم أنبس ببنت شفّة. هذان الكعبان الخشنان، والباهتان اللذان كانا أمامي على الطريق، بالكاد يطلق على الجلباب الذي فوقهما اسم قماش؛ إنّه خرقة، وسلّة الفول السّوداني المتدليّة من حزام تلائم تجعيدة أجهدت جبينها. عندما تنزل السّلة، تظل تجعيدة جبينها في مكانها. ستخفض أمّي عصابة رأسها في أيام الآحاد في محاولة لإخفاء التّجعيدة. النّساء الإفريقيات مثل أمي يمنحن معنى قاسياً لتعبير «الحاجب المعقود».

ما زالت السّلة جميلة ومصنوعة بإتقان، بعلامة حمراء تدل على أنّها من تصميم «مرافق الأخوات» لدرجة أنّ لم يعد هناك من يحيك السلال بترتيب أكثر منهن. هذا كل ما أهتم الآن بشأنه، لكن ليس كل ما سأهتم به.

قالت لي: لم أجهض بكِ، لأنّ في ذات يوم عودتي من الاستحمام أفزعتني كشماء كانت تتصرف بغرابة، ثمّ هاجمتني.

أحاول تخيّل أنثى الفهد على الطريق الواصل بين المزرعة والقرية. توجد الآن كلاب وأبناء آوى، لكن لا شيء يضاهي الكشماء جمالاً.

جاءت ميليسّا لتعتني بي.

فهل كانت ولادتك يسيرة؟

لكنها نظرت فقط إلى رأسي، إلى أذني. ثمّ قالت وهي تتمتم: طبعاً كانت يسيرة بلا شك.

تنهدت أمّي وأردفت: اكتشفنا لاحقاً أنّ شخصاً ما قد أطلق النّار على شريكها وصغارها ثمّ سلخهم.

وكانت تلك قصّة مولدي الرّسمية.

وهكذا انصرف ذهني عنّي وعن تعب أمّي، ومضى إلى عالم أنثى الفهد.. وسرعان ما شاهدتها بوضوح، تلعق صغارها، وتتواصل مع شريكها.. تحت ظل الأكاسيا. ثمّ ضجّت السماء بصوت قاصف، وتسّاقط أحبابها بلمح البصر. وهي – لشعورها بالخزي – أُجبرت على الهرب وهي مذعورة، رغم أنّها شمّت الدّم وشاهدت الجثث ملقاة بشكل غير لائق.

ولاحقاً، عندما ستعود، ستكتشف أن أحبّتها، كما تركتهم، ولكن أموات بلا جلود.

وبإمكاني الإحساس بالرّعب الذي دبّ في قلب تلك الأم، وغضبها العارم. أشاهد الآن امرأة حاملاً على الطريق، فأقفز عليها.

اعتاد الأطفال الآخرون على السّخرية منّي. انظروا إليها! كانوا يصيحون قائلين. شاهدوا كيف غادرت تاشي عالمنا. بإمكانكم التحقق من ذلك عند التماع عينيها!

تاشي

رجتني أوليڤيا ألا أغادر. لكنّها لم تفهم.

ثمة طائر ينتحب دائماً متى كان فراق الأصدقاء أبدياً، إلّا أنّ أعضاء الإرساليات لم يصدقوا وجوده. كان اسمه أوكوما، طائر الفراق. سمعته عندما رجتني أوليڤيا. كنت متغطرسة، ومبليس أرسل إلي حماراً أسيراً لأركبه.

استمعت إلى أوليڤيا وهي تمسك باللجام، وتحاول التّحكم بأنفاسها. كانت تبكي بينما كان جزء مني يتوق لدهسها.

كانت كعاشقة.

قالت لي: اطلبي مني ما تشائين، وسأنفذه.

ثمّ أضافت: اطلبي مني الذهاب لأي مكان وسأذهب إليه.

لكن، لا تفعلي هذا بنفسك، رجاء يا تاشي.

بات الأجانب مؤخراً يفوقون الأفارقة في الميلودراما، مما جعلني أزدريهم.

وأردفت قائلة: نحن صديقتان طوال حياتيْنا. لا تفعلي هذا بنا.

وكطفل، أصبيتُ بالفواق.

لا تفعلي هذا بآدم.

كوّنتُ صورة كبيرة الحجم عن نفسي في ذهني، وكبيرة الحجم عن نفسي في ذهني. جلست بساقيْن منفرجتين على الحمار كما لو أنّي زعيمة أو محاربة. نحن الذين امتلكنا ذات يوم قريتنا وهكتارات وهكتارات من الأراضي لا

نملك شيئاً اليوم. قُلّصت مكانتنا لمكانة المتسوّلين، لكن لم يكن حولنا من نتسول منه، في الصّحراء حيث كنّا.

قلتُ لها من ارتفاعي العظيم بساقين منفرجتين من على الحمار - إنهم على حق، أولئك الذين قالوا إنك وأسرتك وتد دقّه ذوو البشرة البيضاء.

توقفتْ عن النّحيب. مسحتْ عينيها بظهر يدها، وكادت أنْ تضحك.

قالت: هل أنتِ مجنونة يا تاشي؟

كنتُ مجنونة، وإلا لماذا لم أنظر إليها؟ اختلستُ النّظرات من جانب وجهها وتركتُ عيناي تتفحصان رأسها. شعرها الكثيف كان كالعادة، مجدولاً في ضفيرتين متقاطعتين عند قفاها. لم تصفف شعرها بجدائل قصيرة كعادة النّساء في أولينكا.

خلعتُ جلباب الأم هابارد. كان صدري عارياً، وما تبقّى من ثيابي سقط الآن بشكل مهمل على خصري. لم أمتلك بندقية أو رمحاً، لكني كنت قد وجدت عصى طويلة، وبها وكزت الأرض قرب قدمي.

قلتُ لها: كل ما أهتم بشأنه الآن هو صراع أبناء شعبي. أنت أجنبية، وفي أي يوم تشائين، ستبحرين أنت وأسرتكِ عائدين إلى وطنكم.

- يا يسوع. ناديتُ بسخط.

حدّقت بعينيها أخيراً وقلتُ لها باستهزاء: يا أجنبية. كرهت طريقة تصفيف شعرها.

من أنتِ ومن شعبك كي لا تقبلونا كما نحن؟ كي لا تتأثروا بنا؟ نحن من عليه التّغير دائماً.

بصقت على الأرض. كان تعبيراً عن العصيان لدى كبار السّن الأولينكيين وهم يعرفون عمق تأثير استخدامه.

أوليڤيا - التي كانت تعرف هذا التّعبير - بدت ذابلة هناك في القيظ.

تابعتُ كلامي وقلتُ لها: أنت تريدين تغييرنا لكي نكون مثلك. وأنتِ من تشبهين؟ هل تعرفين الإجابة؟

بصقتُ على التراب من جديد، رغم أني أديت فقط صوت البصق؛ فإن فمي وحلقي كانا جافّين.

قلتُ لها: أنتِ سوداء، لكنك لست مثلنا. ننظر إليكِ وشعبكِ بعين الشفقة. بالكاد تعرفين بشرتك السوداء، لأنّها بدأت تتلاشى.

قلتُ هذا لأنّ بشرتها كانت موهوغانيّة بينما كانت بشرتي سوداء فاحمة. في أوقات أسعد فكرت فقط بجمال أذرعنا عندما كانت أساورنا المصنوعة من العشب، تثير إعجابنا، ونحن نرفعها للأعلى معاً.

لكنها ابتعدت عن الحمار فجأة. يداها إلى جانبيها.

ضحكتُ.

حتّى إنّك لا تعرفين ماذا خسرتِ! ويا لقوّة بأسك حتّى تحضري لنا إلهاً اختاره آخرون لك! إنّه غبي كضفيرتيكِ، وفستانك الأحمر الجذّاب الطّويل بياقته المرتفعة!

تكلّمتْ أخيراً.

قالت لي: غادري. ورفعت ذقنها عالياً بحزن. لم أكن أعرف أنك تكرهينني.

قالتها بهدوء المغلوبة على أمره.

أدخلت كعبيّ في السّرج بمحاذاة الحمار وأسرعت خارج المخيّم. شاهدتُ الأطفال، ذوي البطون المنفوخة والأعين المحتضرة، والتي جعلتهم يبدون في غاية الحكمة. شاهدت كبار السّن مستلقين تحت ظل الصّخور، بالكاد يتحركون على طيّات من الثّياب البالية. شاهدت النساء وهنّ يصنعن حساء جديداً من العظام. لقد جُرّدنا من كل شيء عدا بشرتنا السّوداء. هنا وهناك وجْنة شخص مقدام حفر عليها علامة عشيرتنا الضّعيفة. منحتني هذه العلامات الشّجاعة. أردت علامة مثلها لنفسي.

كان أبناء شعبي ذات يوم متعاضدين وسعداء.

أدرت ظهري لشقيقة قلبي، وهربت مبتعدة عن وجهها المذهول. خلتني أنثى الفهد تلك.

تاشي

ـ وماذا عن أحلامك؟ سألني الطبيب يوماً.
أجبته بأنني لا أحلم.
لا أجرؤ على إخباره عن الحلم الذي أشاهده يومياً ويفزعني.

آدم

قال الطبيب: ترفض زوجتك الحديث عن أحلامها لسبب مبهم. على الأريكة، حيث تخيّلت إيڤلين مستلقية عليها، ثمة شكل مجنون أزرق ومقوّس. جسد امرأة كالسّماء ليلاً. أجلس على مقعدي منزعجة، كما لو أني جاسوس يحققون معه، راحتا يدي الرّطبتان تستريحان على مسنديه.

هززت كتفيّ. حتماً لا أستطيع الحديث عن هذه الأحلام.

إلا أنّي سرعان ما تشاركت المخاوف مع زوجتي في السرير ليلاً. إنّها مستلقية على ظهرها، قابضة على وسادتها. عيناها كبيرتان. وترتعد خوفاً.

قالت لي: هناك بُرج. أظنّه برجاً. إنه مرتفع، وأنا داخله. لا أعرف صدقاً كيف يبدو من الخارج. يبدو جميلاً للوهلة الأولى، وكلما نزلت للأسفل شيئاً فشيئاً فيه، يصبح رطباً وبارداً أيضاً. إنّه معتم. هناك صوت متكرر لانهائي يشبه خرمشات أظافر طفل على ورقة. وهناك الملايين من الأشياء المتحركة حولي في الظلام. لا أستطيع رؤيتها. وقد كسروا جناحي! بإمكاني رؤيتهما من زاوية الجزء الآخر من الغرفة كما لو أنهما مجذافان مرميان. أوه، وهي تجرّ شيئاً (تبين فيما بعد أن هذه الكائنات هي الأرضة) من أحد طرفيهما باتجاهي، ومن الناحية الأخرى، هي مشغولة في سحب شيء ما إلى الخارج. أنا طويلة وسمينة وبلون بصقة التّبغ. مقرف! ولا أستطيع التّحرك!

لم أعرف أني سأتزوج تاشي في نهاية المطاف. فلسنوات طوال كانت أشبه بأخت ثانية لي؛ شخصية بارزة دائماً، تلعب مع أختي أوليڤيا، تخرجان كثيراً مع أمي. شاكستها بلا رحمة، وحاولت التحكم بها. كانت تتشبث برأيها

كأوليڤيا. أحببتُ تصفيف شعرها بصفوف من الجدائل الدّقيقة وتصرفاتها الشّيطانية، وجرأة أسلوبها، كما أحببت تحكمها بعواطفها، وشغفها بسرد الحكايات.

أصبحنا عاشقين معتادين على بعضنا رويداً.

كان أشدّ الأمور تحريماً في مجتمع أولينكا هو ممارسة الحب في الحقول. كان محرماً لدرجة أن ما من كائن حي قد أقدم على هذا الفعل. ومع ذلك، فعلناه. ولأنّ لا أحد في المجتمع يمكنه تصور أنّ بمقدورنا الإقدام على هذه الإهانة ـ ممارسة الحب في الحقول يهلك المحاصيل في الواقع، كنّا نعرف صراحة أنّ أي نوع من الفجور في الحقول يعني أنّ المحاصيل لن تنمو بالتأكيد ـ لم يشاهدنا أحد قط، والحقول أنتجت محصولاً كما في السابق.

أنا أفكر في ممارستنا للحب، بينما ينتظر الطّبيب الإسهاب في الإجابة بخصوص حلم إيڤيلين.

إنها تحلم بأنّهم سجنوها وكسّروا جناحيها، قلتُ بغتة.

ـ هم، من؟ يستفسر الطبيب.

ـ هذا ما لا أعرفه، أجبته.

كانت كفاكهة نضرة وريانة، وحين لا أكون بمعيّتها أحلم بأنّي مستلق على بطني بين قدميها، ووجنتاي على وركيها الرقيقين. لساني يجلب البهجة لكلينا، لكنّه لا يجلب لنا الأطفال. أسلوب الحب هذا، من أشد المحرمات عند أبناء شعبها.

آدم

لم أتحمل سعادة والدي وخالتي، عندما عزما على الزواج أثناء سفرنا إلى لندن. ولم أتمكن من تحمّل تعاسة أوليڤيا، التي تعاطفت معي وأنا مضطرب، مفتقداً تاشي، رغم غضبي منها. مشيت في شوارع لندن حتى ـ في حذاءين جلديين جديدين ـ أصيبت قدماي بالكدمات. الطقس فقط هو ما جعل الأيام محتملة. إنّه الرّبيع، وجمال المدينة كان عظيماً. الليْلك في كل مكان، وتغريد الطّيور يملأ نسمات الهواء العليلة.

أسكنتنا جماعة التّبشير في غرف فسيحة قرب حديقة القدّيس جيمس، وقضينا أنا وأوليڤيا السّاعات تحت الأشجار العتيقة، واستمتعنا بمشاهدة الرجال والنساء الذين يخرجون من منازلهم في الرّابعة والرّبع تماماً، متوجّهين إلى منازل أشخاص آخرين لشرب الشاي، مروا أمامنا، يتهامسون بشيء من الحذر. نافذتي تطل على الأشجار مباشرة، والسماء على مد النظر لدرجة أنّي كنت أستيقظ من نومي وأحسب أني ما زلت في إفريقيا.

بعد حفل الزفاف، استقليت القطار إلى باريس، آملاً أنّ تغيير المشهد سينفعني. كانت هناك شابّة أخرى وددت لقاءها، واسمها ليزيت.

لقد زارتنا ليزيت في أولينكا كعضوة في مجموعة شبابية في كنيستها. كنّا نرفّه عادة عن السّياح، من كل أنحاء العالم، وكان هذا عملا رتيباً، ومملاً، لا جديد فيه، ولكن أذهلني حديثها عن بعض تجاربها العائلية كمستعمرة في الجزائر، حيث عاشت الجزء السابق من حياتها. تمكنا من الحصول على فرصة قضاء عدة ساعات وحدنا. كان هذا ممكناً لأني كنت حينها أعتني

بكهل من أبناء الأبرشية يعيش في ضواحي القرية. لم يكن هناك أحد آخر ليطعمه ويكسيه خلال أسابيع حياته الأخيرة، فأوكل لي والدي هذه المهمة، على أمل - أعتقد - أن يزيدني ذلك تواضعاً. سئمت سأماً عظيماً قارب الجنون، وصلّيت بإخلاص كي يفقد هذا المريض تمسكه الغبي بالحياة ويموت، وهذا ما فعله في نهاية المطاف.

تبعتني ليزيت إلى هذا المكان، إنه كوخ «تورابي». وقفت بقربي - بشعرها الكستنائي الباهت، وعلى طريقة البيض المخيفة التّي تتعارض تماماً مع البيئات الطّبيعية المحيطة بنا - بينما كنت أطعمه وأغسله وأضمّد تقرحاته الجلدية - لأنّه نام بأسماله البالية وقتاً طويلاً - بينما تتحدّث عن سحر باريس. كانت تتخلل إنجليزيتها لكنة.

لم أصدّق عثوري عليها بسهولة هنا. ارتشفنا القهوة بعد فترة وجيزة في منزلها الصّغير قرب محطة القطار، منزل تُركت فيه مع جدتها، وكانت تخبرني عن وظيفتها كمعلمة. في بيئتها شعرتُ بأنني مختلف.

- لكنك لم تقطع كل هذه المسافة لتسمع أخبار تلاميذ المدرسة الثانوية الفرنسية، قالت وهي تناولني قطعة كعك لذيذة.

- تبدو مهموماً، أليس كذلك؟ ما الفائدة؟

كان تملّصاً بسيطاً وساحراً، جعلني أضحك. كان هذا شعوري.

سألتها: أتعيشين هنا وحدك دون إزعاج من أحد؟

استغربَتْ.

- ولا أحد يكترث لكونك غير متزوجة وتعيلين نفسك؟

- لا يزعجني أحد، أجابت بالفرنسية. لم تعد النساء متاعاً، ثمّ أخذت نفساً عميقاً. رغم أنّ الفرنسيات تمكنّ في الآونة الأخيرة من التصويت، إلا أننا أصبحنا ننتخب رجلاً تلو الآخر.

ابتسمتُ بحزن.

تقتُ توقاً كبيراً لأسألها عن حياتها الجنسيّة. عمّا إذا مارست الحب مع

شخص ما. عن تأثير الفعل عليها. سواء أكانت تعرف أو جرّبت طرقاً مختلفة تمنع الإنجاب.

وبدلاً من ذلك، سألتها عن الكنيسة. إذا ما كانت لا تزال نشطة فيها، وإذا ما كانت تُرْسِل مجموعات من الشباب إلى إفريقيا.

ـ حسناً، وإحقاقاً للحق، قالت، لقد فقدتُ إيماني. تعمّقتُ وتعمّقتُ في ديني ولم أجدني فيه. اعتقدت وأنا أصغر في العمر أنّ الكنيسة موجودة لمساعدة الجميع على الارتقاء بأرواحهم، ولكن صدقاً، يبدو أن النّاس منحطي الأرواح حولنا أكثر من ذي قبل.

توقّفَتْ فجأة.

ـ لا تجبرني على الاسترسال في الحديث. ما حدث هو أني لم أتمكن من التّوفيق بين كلمة «الطّاعة»التي تنطق بها الزّوجة في كنيسة الزواج بأي نوع من أنواع التّعظيم الرّوحاني أو الفيزيائي في نفسي. شعرت أن تلك الكلمة قد خدعتني.

فكّرتُ بأبي وأمي نيتّي. هل استُخدمت كلمة «أطيع» في مراسم زواجهما؟ وهل «ستطيع» ماما نيتّي والدي؟ أعلم علم اليقين أنّهما سيبذلان جهدهما ليسعد أحدهما الآخر؛ لقد فعلا ذلك أصلاً. شعرت أن تلك الكلمة قد خدعتني. لكن لماذا توجد الكلمة في احتفال بين شخصين متكافئيْن يحبان بعضهما؟ حسناً، من الواضح أن النّساء، اللاتي كان من المفترض أن يطعن، لم يُعتقد أنهنّ مكافئات للرجل.

فكّرت بتاشي. في كل مرة مارسنا فيها الحب، كانت ترغب بي بالقدر ذاته الذي أريده فيه. هي من رتّبت معظم لقاءاتنا. ومتى ما عانقنا بعضنا تتسارع أنفاسها بتلاحق. ادّعت في إحدى المرات أنّ قلبها يكاد يتوقف. متعة كمتعتنا تلك يستحيل تصديق حدوثها. أكانت متعة يعرفها الآخرون؟ سألنا أنفسنا مراراً. لا تحمل وجوه العجائز والشيوخ حولنا أي دلالة على ذلك.

الفصل الثّاني:

تاشي

هل تستطيعون تحمل معرفة ما خسرته؟ قلت وأنا أصرخ على القضاة ذوي الشّعور البيضاء المستعارة. وعلى المحاميَين ـ محام خاص بي وآخر عُيّن ليدّعي علي. كلاهما في ريعان شبابه، إفريقيان متأنّقان ومتناسبان تماماً مع لندن، أو باريس، أو نيويورك. سألت هذا السؤال صارخة في وجوه الحضور الفضوليين الذين ترفّه محاكمتي عنهم. لكن الأهم من ذلك، بأنني صرخت به على أسرتي: آدم، أوليڤيا، بيني.

لم يجب أحد عن سؤالي. كتم محامي الدفاع ضحكة لأني فقدت رباطة جأشي. طرق القضاة أقلامهم على صواني الشاي خاصتهم.

ـ لكن في صبيحة الثاني عشر من أكتوبر الأخير، ألم تتعمدي شراء بضع شفرات من محل قرب محطة حافلات أومبر؟

ـ في سالف الزّمان كان هناك رجل له لحية في غاية الطول والكثافة... بدأت دون تفكير. توقفت فقط عندما أدركت أنّ حضور القاعة كلهم قد انفجروا ضاحكين. حتى أوليڤيا ـ عندما اختلست النظر إليها ـ كانت تبتسم. أوه، تاشي، بدا أن نظرة أوليڤيا تقول: حتى هنا، في محاكمة قد تنهي حياتك، مازلتِ تختلقين القصص!

قال المدّعي العام الشاب المتأنق: هلّا تلطّفتِ وأجبت على السؤال دون أي محاولة للتمادي أو تشتيت انتباه القضاء بحياتك المتخيّلة.

أخشى الوجود من دون حياتي المتخيلة. من أنا، تاشي، تغيّر اسمي في أمريكا إلى «إيڤيلين» جونسون؟

ترتبط الشفرات لدي بالرجال دائماً، باللّحى ومقاعد الحلاقة. إلى أن سافرت إلى أمريكا لم يخطر ببالي ابتياع أحدها، لأحلق رجليّ وإبطيّ.

قلتُ للمحامي: أجل، ابتعتُ ثلاثة أمواس.

ـ لماذا ثلاثة؟ سأل.

ـ لأنّي أردت التّيقن.

ـ التّيقن من ماذا؟

ـ القيام بالمهمّة بإتقان.

ـ تعنين قتل المرأة العجوز؟

ـ أجل.

ـ هذا كل شيء يا حضرة القاضي، قال.

في تلك الليلة تذكرتُ فجأة في زنزانتي السكين الكبير الذي شاهدته في منزل الرجل الكهل في بولينجن، عندما أخذني آدم إلى هناك. كان ضخم البنية، كما لو أنّه ملك عملاق. فكّرت: كيف يكون وجه رجل بهذه الضخامة؛ حلاقة وجهه أشبه بحلاقة وجه بفأس. كانت السّكّين ملقاة في الرّواق، قرب المدفأة، والرجل الهرم استخدمها، إلى جانب منجل ضخم، لكشط لحاء الخشب بغية إضرام النّار. كانت سوداء عتيقة، بتنانين صينية محفورة ببرونز مخضر على جانبيْها. شفرتها في غاية الحدّة. لم أقوَ على إبعاد نظري عنه. وضعها الرجل الهرم ـ عندما لاحظ إعجابي ـ بلطف بين يدي، وأغلق أصابعي عليها احترازاً. إنّها جميلةٌ، أليس كذلك؟ سأل، لكني أظنّه قد لاحظ إحكام قبضتي عليها ورمقني بنظرة غريبة.

حملت السّكين ونظرت إلى بحيرة زيورخ. من المدهش بعد رحلة طويلة، وصولنا فعلاً أنا وآدم إلى هناك.

سافرنا إلى لندن أولاً، حيث تحدّثت أوليفيا أمام جماعة من الثيوصوفيين، ثمّ إلى باريس، بعدها إلى زيورخ، مدينة نظافتها ملحوظة وتجلب النّعاس. في الحقيقة، بدا من نافذة المطار أنّ سويسرا بأكملها تغط في نوم هادئ. كل

ما فيها مرتّب، ومنسّق، وآمن. كان هناك شعور بالتّوفير، بالاقتصاد، حتى قبل أن تطأ قدما المرء أرضها. بإمكاني رؤية أن الغابات معتنى بها: حيث تقطع أشجار، تزرع شتلات. كأنها بلد منمنم، يمكن تصويب كل خطأ بسيط فيه، من دون بذل كثير من الجهد.

لفتُّ انتباه آدم إلى غرابتها: تُعرف طباع أهلها بسهولة لأنّها ممهورة على المناظر الطبيعية.

قال لي، وهو يشير إلى جبال الألب المهيبة: لكنّ هذا ينطبق على كل بقعة من بقاع الأرض. من النّاس من يدمّر كلّ مكان يذهب إليه. هذه أرض أناس مكثوا في وطنهم. والجبال تشكّل سوراً رائعاً.

طفنا بالمطار الذي يتوسط حقلاً، وعندما اقتربنا أكثر من الأرض، شاهدنا الأبقار والبرسيم والزّهور صفراء.

استقلينا قطاراً إلى بولينغن.كان يمضي بهدوء، سائقه أحمر البشرة ذو شعر رمادي أشهب. نظرنا عبر النّافذة إلى منازل كوخيّة التصميم، وبساتين الكروم، ومحاصيل الأسر من الذّرة. الحدائق في كل مكان.

لم أتخيّل أبداً سويسرا دافئة الطّقس. في خيالي كانت تثلج دائماً: النّاس على المزالج، والأرض بيضاء دائماً، كان هناك شراب الشوكولاته الساخنة. لكن الشمس كانت حارقة، والناس في ملابس خفيفة. أبهجتني رؤية بائع المثلّجات في إحدى المحطات. شعرتُ أنّ الطفلة التي فيّ، التي أحبّت تخيّل المساحات الشمالية المثلجة، خاصة أثناء نشأتي في إفريقيا الاستوائية، كانت تخوض تجربة ممتعة.

بدا آدم متوتراً قليلاً عند اقتراب القطار من المحطّة. المغادرة والوصول تزعجانه دائماً. أتذكر وصولنا أول مرّة إلى أمريكا. حماسته لأنّه وصل «آمناً» وقد عاد إلى الوطن أخيراً. وتفاجؤه من استمرار مضايقته لأنّه أسود.

اعتاد أن يصحّح كلامي، قائلاً: لا، لا، إنّهم لا يتصرفون بهذه الطّريقة لأنّي أسود بل لأنّهم بيض.

بدا فارقاً يثير فضولي في ذلك الوقت. وقعت في غرام أمريكا. لم أجد الأمريكيين فظّين في الواقع. ومع ذلك لم أتعمّق في دراسة تاريخ أصرّ والد آدم أن يدرسه ابنه وابنته أوليفيا، أثناء استعدادهم للعودة إلى الوطن. شعرتُ بقدرتي على رؤية كل شيء بطريقة أكثر شمولية، فكل ما شاهدته كان جديداً، إضافة إلى أعجوبة وجودي في أمريكا على أي حال. إذا ما تصرف شخص أبيض بتعجرف فإنّي ألتفت وأحدّق فيه ببساطة. لا أعترف إطلاقاً بنظام يجيز السّلوك الفج، وأتصرف مباشرة مع المسيء. يا لك من غير متحضر! كانت الرسالة التي تحملها نظرتي.

كنّا مصرّين للغاية على الوصول إلى نهاية رحلتنا الطويلة لدرجة أن محطتنا فاتتنا ونزلنا، ساهين، في المحطة التي تليها، شمبِركن، قرية تسر الخاطر قرب حدود البحيرة. حارّة ومُربكة، نزلنا من القطار واهتدينا إلى مقهى صغير قرب المحطة. طلب آدم شطيرة ـ لم نتناول شيئاً طوال اليوم ـ أمّا أنا فطلبتُ لفائف الجبن، وسلطة خضراء، وليموناضة.

جلسنا هناك، في ظل شجرة زيزفون، أسودان ومكتنزان في أواخر منتصف العمر، غزا الشيب شعرنا، وتلمع على وجهينا حبات العرق. كما لو أننا من شخوص إحدى لوحات هوراس پيپين[1].

1- Horace Pippin: (1888 ـ 1946م) رسّام إفريقي ـ أمريكي أعماله تدور حول العبودية والعنصرية: المترجمة.

آدم

أول ما لاحظته هو نظرتها الخالية من المشاعر. أفزعتني.

فور عودتنا من إنجلترا. تزوّجت خالتي من والدي بسلام، طفت بالبلد بحثاً عن تاشي. كانت رحلة طويلة دامت شهوراً طوالاً؛ لأني كنت أمشي غالباً وبالكاد لدي فكرة بسيطة عن المكان الذي أقصده. وفي الشهر الأخير وجدتني أتتبع مساراً يتكوّن من علامات عبارة عن عصوان متصالبان وتشكيل غريب يتكون من صخور مجتمعة قرب قنوات الرّي. ثم، عندما جرجرت جسدي المرهق والمضنى من البحث إلى مخيّم ميبيل، فاجأني وجود المحاربين الواقفين لحراستهم، وأخذوني إلى ثكنة معزولة للتحقيق.

احتمال كهذا ـ أن يعتقلني عدد من الثّوار الإفريقيين ـ لم يخطر في ذهني، لبراءة أفكاري. فكّرت ـ أيضاً ـ أنّ ميبيل، إذا كان موجوداً من الأساس، فإنّهم سيتحدّثون جميعاً لغة الأولينكا، أو على الأقل الكيسواحلية، ثرثرة كنت أعرفها. لكن لم يحدث هذا، كان جليّاً أنّ هؤلاء المقاتلين الأحرار من أجزاء مختلفة من إفريقيا. وكان هناك كذلك ـ علمتُ لاحقاً ـ امرأة أوروبية، ورجل أوروبي وعدد من الأفارقة السّود من الجنسيْن في المعسكر. وبما أن المحققين معي لم يتحدثوا بأي من اللغتيْن الأولينكية أو الإنجليزية، فإن وقتاً طويلاً قد مضى ـ أسبوعاً ربّما ـ قبل تمكّني من إفهامهم بأنني لا أنوي شرّاً، وقد كنتُ أبحث عن شخص ما فقط. وحتى بعد أسبوع من لغة الإشارة ورسم الأشخاص على الأرض بإمكاني ملاحظة أنهم لم يقتنعوا. لسبب واحد، كانوا مرتابين من حذائيْ. زوج من الصّندل الإنجليزي

الضّخمين جلبتهما معي من لندن، وطبعاً ساعة معصمي ذات الرباط المطاطي الذهبي، كانا برهانيْن على رفاهية يملكها ذوو البشرة البيضاء فقط، فهم حسب ظنّهم وبحكم تجربتهم، الوحيدون القادرون على امتلاكهما. تمكّنت من مقايضة حرّيتي بالساعة والحذاءين. لكن سرعان ما اتضح أنهم كانوا قد قرروا أنّي غير مؤذ، بمعنى آخر، لست جاسوساً، وأنهم يخططون لتجنيدي. فور إدراكي لهذا، ارتحت بعض الشيء. ذلك لأني اكتشفت أنّ مواجهة هؤلاء الرجال وجهاً لوجه، قد أصابتني بذعر شديد. كانوا جميعاً «عمليين». لا يمزحون مع بعضهم ولا يبتسمون. لم أشاهد سوداً كأولئك الذين اعتقلوني.

رمشت عين أحدهم في اليوم الذي رحت أرطن فيه بالأولينكية. ظننتها تعبيراً عن كلمة ماء. «باراش» Barash باللغة الأولينكية تعني «ماء»، وكنت أسألهم المزيد منه باستمرار. كان الماء ساخناً حيث كنّا، في خور تحيط به صخور المنحدر الهائلة والتي تمتص حرارة الشّمس طوال اليوم. أحسست بأنني سأموت عطشاً، وعلِمت بأنّهم استاؤوا من إحضار جرّة الماء الكبيرة إلى كوخي. لا لأنها ثقيلة فقط، ويجب أن تجلب من مسافة طويلة من النهر، بل لأن حمل الماء لم يكن من مهام الرجال. إنه من أعمال النّساء. وعلى أي حال، بما أنّي سجين، والتحقيق معي بسرية شديدة من أعمال الرجال، فإنّ إحضار الماء أيضاً ـ بالضرورة ـ صار من مهامهم.

بعد فترة قصيرة من مشاهدة رفّة عين الحارس أحضروا لي شاباً ليكلّمني بالأولينكية. أخبرني أنّ اسمه هو بانسي، وبعد تبادل الأحاديث معه بقليل تذكّرته. تذكرت والديه في الواقع، لأنهما كان مسيحيْن مخلصيْن وداعميّن لوالدي والكنيسة. آخر مرة شاهدت بانسي فيها كانت عندما كان صبياً صغيراً. كان ما يزال يافعاً، في الخامسة عشرة ربما، ذا جبين عريض ومرتفع، وعينين مبطّنتين. أخبرني عن وجود كثير من الأولينكينين في المعسكر. نساء ورجال أيضاً. قال إن تاشي بينهم حتماً، لكنّه يعتقد أنّها متوعّكة.

كان الحفاظ على رباط جأشي صعباً عندما سمعت كلامه. صككت

أسناني بقوّة. يكفي أنّها على قيد الحياة، قلت لنفسي. كان من الصعب تقريباً، بعد الرّحلة الشّاقة التي خشيت ألا أكملها، تخيّل أنّ تاشي، وهي تركب حمارها وتبتعد، قد نجت أيضاً.

بعد أن كفلني بانسي، تغيّر سلوك الحرّاس مباشرة. وقوفهم العسكري الصّارم والمبهم - كما لو أنهم ورثوه عن هتلر ذاته - انهار وغدا كالمشية الظريفة المتأنية للأفارقة. ابتسموا وتمازحوا، وقدموا ليّ الشاي.

شاي، أوضحوا لي، مصدره أوروبيون في المعسكر، أحدهم هو ابن مالك مزرعة كان قد هجّر ألف إفريقي من منازلهم. بوب، هذا الابن الذي ترعرع على الزّراعة حتى العاشرة من عمره، ثمّ أُرسل إلى مدرسة داخليّة في إنجلترا، لم يكن قد رأى سوداً في حياته كلّها سوى الخدم في بيته.

كان هذا كل ما عرفته عن بوب، مورّد الشاي. استغربت من أنّه يعرف تمام المعرفة موقعهم ويمكنه دخول مكانهم السّري. في الواقع، علمت أنّ لديه كوخاً خاصّاً به قضى فيه معظم وقته.

شاي لذيذ! ضحك سجّاني، ثم أضاف عليه السكر، فرفع نخبي والشاي يفيض من الكوب.

كان مخيّم ميبيل نسخة مطابقة للقرية الإفريقية، رغم أنّه أكبر مساحة ومتوارٍ. لم يكن هناك كوخ في العراء، بل كان كلّ كوخ تقريباً قريباً من جذع شجرة ضخمة أو صخور هائلة الارتفاع. حظائر الحيوانات هي الأخرى كانت عند قاعدة المنحدرات. كل التّفاصيل تذكّر بمستعمرات قبيلة «الدوغون» القديمة الذين أقاموا في المنحدرات، حسب صور فوتوغرافية شاهدتها. ومع ذلك، فلا شيء، يدل على وجود مستوطنة بشرية غير دخان متصاعد، سيشاهده أيّما شخص ينظر من الأعلى.

كانت تاشي في ظلّة خشنة مصنوعة من الأغصان. مستلقية على بساط مصنوع من العشب نما حول المعسكر. وخلال استلقائها هناك، كانت تسند رأسها وكتفيها على جُلمود كأنّها حيوان ضئيل الحجم، مشغولة بصنع المزيد من بُسط الأعشاب هذه. لم أتمكن من معرفة ما إذا ما كانت سعيدة لرؤيتي.

عيناها لم تعودا تتلألآن لهفة. كانتا بلا مشاعر كعينين مرسومتين، بلون باهت. كانت هناك خمسة جروح على كل جانب من وجهها، كالعلامات التي يصنعها المرء ليسجّل النتيجة وهو يلعب تيك ـ تاك ـ تو. قدماها رماديتان وهزيلتان، وكانتا مقيدتين.

كلماتها الأولى لي: يجب ألّا تكون هنا.

كلماتي الأولى لها: وأين عساي أن أكون؟

بدا أن هذه الإجابة قد أفحمتها. وخلال محاولتها التّحكم بمشاعرها، كشفت الكثير عن ألمها. زحفتُ على ركبتي حيث كانت تجلس، طوّقتها بذراعي، وتنهّدتُ.

تاشي

لقد جاء من أجلي، حدّثت نفسي. جاء أخيراً، الرّب وحده يعرف كيف. إنّه ممزق الثّياب وقذر وشعره كشعر همجيّ، أو شعر مجنون معزول وسط الأحراش. إنّه هنا. وبإمكاني أن أتبين بينما ينظر إليّ بأنّه لا يعرف إذا ما كان عليه أن يضحك أو يبكي. هذا شعوري أيضاً. عيناي تشاهدانه لكنّهما لا تسجلان وجوده. لا شيء يخرج من عينيّ لتحيّته. كما لو أنّ ذاتي تختفي خلف باب حديدي موصد.

كدجاجة أنا مآلها السّوق. ندوب وجهي قد التأمت تقريباً، لكن يجب أن أكش الذّباب بعيداً. الذّباب الذي تجذبه الرّائحة المنبعثة من دمي، تواقاً ليأكل من الوليمة التي تقدمها جروحي.

الفصل الثّالث:

إيڤيلين

ألملكِ هو ألم نجّار غير مبال، طرق إبهامه بمطرقته، قال الرجل الكهل.

لم يعد يمارس وظيفته بنشاط طبيبٍ متخصص في الأرواح. إنّه يقابلني فقط لأني امرأة إفريقية وبتوصية من ابنة أخيه - صديقة زوجي وعشيقته - المرأة الفرنسية، ليزيت. يصعب عليّ التّفكير بالمحادثات التي دارت بين آدم وليزيت عني على مدار السّنوات، خلال زيارته مرّتين لباريس في العام وزيارتها السّنوية لكاليفورنيا. غالباً، خلال زيارتها عليّ التحلي بضبط النّفس. ذات مرّة فحصت نفسي طواعية في مشفى ويڤرلي للطب النفسي، والذي أُمنح فيه غرفة دائماً، لأنّ رجلاً له علاقة بأعمال آدم الكهنوتية يدير المشفى.

أحببتُ الرجل الهرم فوراً. أحببتُ طوله الفارع وظهره المحدودب، ومعطفه الصّوفي المعلّق منذ فترة طويلة على كتفيه المنهكيْن. أحببتُ وجهه الوردي المُحمَر وعينيه الزرقاوتين الصغيرتين اللتين تحدقان بنظرة ثاقبة يصعب أن يشيح المرء بوجهه عنه بعد أن يشاهده. أحببتُ، كذلك، أنه هو ذاته قد يظهر أحياناً بهيئة المجنون - بما يماثل هيئتي أيضاً - رغم أنها كانت نظرة دمثة بدا أنها تلاحظ الرّابط بين ما وقع عليه بصره وشيء عظيم، بتصميم رحب لا يمكن تصوره، يفوق أي إدراك. بعبارة أخرى، بدا أنّه سيموت قريباً. ووجدت هذا مريحاً.

آدم

بالكاد تحدّثت في البدء عن اضطرارها الغريب لإلحاق الأذى بنفسها. وذات صباح استيقظتُ لأجد أن قاعدة سريرنا ملطّخة بالدم. قالت إنها لم تعِ أبداً ما كانت تفعله، ولم تشعر بشيء، كانت تهشّم خواتمَ، أو خلخالين لطّختهما الدّماء، أو سلاسل تقيّد كاحليها.

ايفيلين

جزء من عدم خوفي منه هو أنّي لم أخش منزله، رغم أن تصميم منزله الخارجي يعود لأوروبا العصور الوسطى، خاصة ارتفاع أبراجه ووجود فناء صغير أردوازي الحصى، وفي منتصفه كوخ صغير ومستدير فيه مدفأة كبيرة وموقد مبلّط. ركع هناك، ركبتا العجوز تصطكّان من أثر البرد، ليشعل نار الصباح والمساء، والتي كان يطبخ عليها، وبدا لي أحياناً، أنّه أشبه بجدّة إفريقية هرمة، ممسوخاً بطريقة ما على هيئة طبيب طاعن في السّن وضخم البنية وذي وجه أحمر، موجود في قارة أخرى باردة. ارتدى في الغالب مريلة جلدية من نوع خاص إذا ما قطّع الأخشاب أو نقش الأعمدة الصخريّة المُثبّتة قرب البحيرة مقابل الرّواق، أو مريلة قطنية سميكة إذا ما أراد أن يطبخ الفطائر السويسرية الرّائعة والسّجق الذي يطيب له طهوه لنا.

كان شعره ناعماً ورمادياً كما نبات كثير الشّوك. كنت أحياناً ـ إذا تأخرت عن لقاءاتنا ـ أمشي خلفه عندما يجلس مع آدم للتّدخين وتأمل البُحيرة، مما يجعله يمد يديه خلف رأسه ليمسك ذراعيّ، ويسحبني أكثر نحو ظهره الضخم وكتفيه، ويحضنني بهذه الطّريقة كما لو أنّ رأسي قمر فوق رأسه، ويضحك.

اعتدنا أن نقول ـ آدم وأنا ـ يا ميزي (أي الرجل الهرم)، أنت أملنا الأخير!

لكنه نقّل ناظريه بيننا ـ بنظرة جسورة ـ ثمّ قال بلكنته الإنجليزية الثقيلة: لا، هذا غير صحيح. أنتما أمل نفسيكما الأخير.

إيڤيلين

دفعني إلى الرسم. وكان أول ما رسمته لقاء أمّي وهي في طريقها إلى البيت بأنثى الفهد، لأنّ هذه الحادثة تُعنْونُ مولدي. تُعنْونُ دخولي إلى الواقع. لكنّي رسمت، ثم لوّنت، أنثى الفهد بقدميْن، وأمي المذعورة بأربعة أقدام.

ـ لماذا؟ سألني الطبيب الهرم.

ـ لا أعلم.

ايفيلين

أخبرني بيني أن هناك سجالات كثيرة الآن في الصحف والشارع عمّا إذا كان لحكومة أولينكا الحق في إخضاعي للمحاكمة، بما أني مواطنة أمريكية منذ سنوات. حسب أنّ هناك احتمالاً بتسليمي للولايات المتحدة. جلس بقلق، وقرأ لي ملاحظات كتبها عن الموضوع.

أحلم بالولايات المتّحدة أحياناً. أحبّها حباً جمّاً وأفتقدها كثيراً، لدرجة مزعجة لمعارفي. في كل أحلامي هناك نهر جارٍ صافٍ وأشجار خضراء ساحرة، وحيثما تكون هناك شوارع تكون عريضة ومرصوفة، وفي ليل أحلامي هناك نوافذ مضاءة تطل على الشوارع، وخلف هذه النّوافذ أعلم أنّ هناك أشخاصاً دافئين، هانئين، آمنين، نظيفين، يأكلون اللحم.. عندها أستيقظ على رائحة خوف لا مبرّر له، والثّريد التّقليدي وفطور الفاكهة الذي لم يتغيّر مذ غادرتُ، باستثناء أنّ أطباقي طازجة ومعدّة على نحو فاتح للشهية، بفضل أوليفيا التي سمحت لنفسها بحرية التّصرف في مطبخ السّجن، عبر رشوة.

ـ وإذا كنت سأسَلّم لأمريكا ـ تساءلتُ ـ فهل ستكون هناك محاكمة أخرى؟

يقول بيني، وهو يتفقّد ملاحظاته، إنه لا يعرف على وجه التأكيد، لكنّه يعتقد بذلك. إنّه فارع الطّول، بنّي ومشرق عادة. لكن الخوف في الوقت الحالي بلّده.

المرور بكل إجراءات هذه المحاكمة في أمريكا من جديد لا يروقني.

يقولون إن الجريمة التي ارتكبتِها لن يكون لها معنى في أمريكا بالكاد لها أي معنى هنا.

إيفيلين- تاشي

كسر طبيب الولادة أداتين وهو يحاول زيادة حجم الفتحة لتناسب رأس بيني، ثمّ استخدم المبضع، ثمّ مقصين يستخدمان للغضاريف القوية في العظام عادة. أخبرني بكل هذه التّفاصيل عندما أفقت، ونظرة الفزع لم تفارق وجهه. نظرة حاول مواراتها بالمزاح.

كيف لذلك الطفل الكبير (كان وزن بيني تسع باوندات) الدخول إلى هناك يا سيدة جونسون؟ هذا ما أريد معرفته. ابتسم ابتسامة عريضة، كما لو أنّه لم يسمع عن حركة الحيوانات المنوية السّريعة. حاولت التّبسم بابتسامة مواربة له أولاً، ثم للأسفل نحو الطفل الذي بين ذراعيّ. كان رأسه أصفر وأزرق وممسوخ بشدّة. لم أملك أدنى فكرة عن كيفية إعادة تشكيله بشكل صحيح، لكن تمنّيت مغادرة الطبيب فوراً. أن ترشدني الفطرة. ولم أتخيّل سؤاله عن أي إرشادات على الإطلاق.

وقف آدم إلى جانب السرير في حرج شديد منعه من الكلام. كان يسعل إذا شعر بالإحراج أو التّوتر، إنّه يكرر تنظيف حلقه الآن. بيدي الخالية، لمسته. اقترب منّي أكثر، لكنّه لم يلمسني، الصّوت الذي في حلقه يجعل يدي تقترب منه. بعد وقت قصير، سحبتُ يدي.

إيڤيلين- تاشي

أحسست كما لو أنّي سمعت صوت وقوع شيء وتشظّيه على الأرض الصّلبة، هناك بيني وبين آدم وطفلنا والطبيب. لكن لم يكن هناك إلّا صمت مطبق، وبعد لحظة بدا الصّوت غريباً كصياح القردة.

إيڤيلين- تاشي

عندما أخبرته أني حامل، قال بمرارة هكذا يكون الحمل الإلهي، قصد ذلك حرفياً، طالما أنّه باحث في الإنجيل. بعد ثلاثة شهور من المحاولة، فشل في اختراقي. كل مرّة لمسني فيها، نزفت. كلما واجهني جفلت. ما كان بمقدوره فعل شيء من دون أن يجرحني. وبطريقة ما، صرتُ حاملاً بـ «بيني». ملأتنا تجربة إدخال بيني «هناك» المؤلمة فزعاً، ونحن ننتظر مولده.

كنتُ أراقب نفسي، مهما كانت درجة الإعياء التي أشعر بها. لم أستسغ فكرة وجود ممرضات أمريكيات يسرعن الخُطى وينظرن إليّ كما لو كنتُ مخلوقة تتخطى خيالهن. إلا أنني في النهاية، كنت تلك المخلوقة. حتى عندما أنجبت، احتشدت الممرضات، وطاقم المشفى الفضولي، وتلامذة الطب، حول سريري. ولأيام بعد ذلك جاء الأطباء والممرضات من أنحاء المدينة، وكل من أعرفهم في الولاية ليسترقوا النظر إليّ من فوق كتف طبيبي أثناء فحصه لي. كان هناك أيضاً سؤال ماذا نفعل «بالفتحة»، كما سمعته يقول من دون أن يحاول تلطيف كلامه مراعاة لي.

وضع آدم أخيراً حداً للتفرّج على ما صار في جسدي، وفي الأيام الثلاثة الأخيرة من إقامتي في المشفى كان بيني بقربي، مسّدت رأسه خلسة بحركات لطيفة طبيعية (شعرتُ غريزياً أن عليّ فعل ذلك بالّلسان). عندما أخذته الممرضة بعيداً عنّي، أدرتُ رأسي إلى النافذة ونمتْ. نمتُ وقتاً طويلاً وبعمق شديد لدرجة حتّمت على الممرضة أنْ تهزّني عندما حان وقت الرّضاعة.

خيّطني الطّبيب مجدداً، بقدر يكون فيه طبيعياً، وإلّا فسيكون هناك جرح مفتوح غير قابل للالتئام. خاط الطّبيب الجرح الآن بطريقة تسمح بالتّبول ونزول الطّمث بسلاسة أكبر. وقال إن ممارسة الجنس الآن، وبعد الولادة عموماً، مسموحة مع زوجي.

بيني، طفلي الأسمر المشرق، نسخة طبق الأصل عن آدم، كان معاقاً. جزء صغير ومُهم من عقله سحق عند ولادته. لكن حمداً للرّب، خلال الفترة التّي أمضيتها في المشفى، وحتى لسنوات بعدها، لم ألحظ ذلك.

آدم

لقد حفروا حفرة صغيرة في القذارة تحتها، وكانت هذه مبولتها.

كانت على أقمارها عندما وصلت، لم يكن هناك إلّا العجوز ميليسّا من أولينكا لمساعدتها، وكان هناك ذباب، ورائحة خفيفة معروفة.

تذمّرت ميليسّا من نقص كل شيء. قالت ما كان لتاشي أن تحتاج شيئاً في الأيام الخوالي. عدد من العذارى وخالاتهن وأخواتهن الأكبر سنّاً كنّ سيبادرن ويتولين أمور الطبخ (وهذا مهم نظراً لوجود أطعمة خاصّة تأكلها المرأة في هكذا ظروف لتسهيل التّبرز، ما يخفف ألم الإخراج)، وتنظيف المنزل، وغسل وترطيب وتعطير جسد تاشي.

لم يتصادف أن تبادلت الحديث مع ميليسا بما يتجاوز «مرحبا». عرفت من تاشي أنها هي من أخرجتها إلى العالم، وأن لها مكانة مهمة بين الأولينكيين، فهي القابلة والمداوية، رغم أن من اعتنقوا المسيحية وتحولوا للطب الغربي، انتبذوها. فاجأتني رؤيتها في معسكر ميبيل، وفاجأني أكثر من أي سبب أيديولوجي، كونها عجوزاً، وتعرج. كيف كانت تجرجر قدمها العاجزة، مرتدية الأسمال، وقد جاءت من أرض بعيدة؟

كان بمقدورها الحديث في أوقات متأخرة من بعد الظهيرة، تصل منقطعة الأنفاس بعد يوم من متابعة الأخريات في المعسكر، هي التي أولت تاشي العناية وغسلت جرحها وطهرته، وما كانت تشير إليه دائماً بالجرح بل بالمُشافي. أخبرتني أنها كانت أولاً في مخيّم للّاجئين عند حدود أولينكا، قالت إنه مكان فظيع مليء بأولينكيين يحتضرون هربوا

من المعارك بين ثوّار ميبيل وقوات الحكومة البيض، أغلبهم كانوا أفراداً أقلية من قبائل السّود ممن كرهوا الأولينكيين المهيمنين. كانت فظاعاتهم تفوق أي شيء شاهدته، متخصّصين في تقطيع أعضاء أسراهم. كانت رهن إشارتهم في المخيّم، رغم أنها لا تملك غير يديها لتعمل بهما؛ لم تتوفّر الأعشاب، أو الزيوت، أو المُطهّرات، ولا حتى الماء أحياناً. لقد ولّدت الأطفال في الظلام، وأعادت العظام لمكانها واستخدمت الحجارة لتنعيم غضاريف الأطراف المبتورة البارزة. لم يكن لديها ما يعينها غير طاقة تحمل مرضاها المثيرين للاشمئزاز. كانت في مخيّم اللاجئين ـ قالت ـ حينما اشتعل رأسها شيباً، وحيث فقدته في نهاية المطاف. والآن ـ واصلت حديثها وهي تحرّك يدها الهرمة الملتوية إلى الأمام والخلف باستهزاء ذاتي ـ أنا صلعاء كبيضة.

قالت ميليسّا: النساء في المخيم بدأن جميعاً في العمر المناسب. إمّا بعد الولادة بوقت قصير، أو عند عمر الخامسة أو السّادسة، ولكن حتماً عند بداية مرحلة البلوغ، العاشرة أو الحادية عشرة. لقد تجادَلت مع كاثرين - والدة تاشي -لتخضع لهذه العملية حين كانت في العمر الملائم. لكن، ولأن كاثرين كانت قد اعتنقت المسيحية، صمّت أذنيها عن الحديث. بررت لي ميليسّا وهي متجّهمة بالقول إن الابنة الرّاشدة هي التي جاءت إليها، وأرادت العملية لأنها أدركت أنّها الختم الأكيد والوحيد الباقي من عادات أولينكا. وأضافت بأن تاشي الآن لن تشعر بلا أدنى شك، بالعار لأنّها لم تتزوج.

ـ أردتُ أنْ أتزوجها، قلتُ لها.

ـ أنت أجنبي تنبذني، أجابتني.

ـ مازلت أرغب بالزواج منها، قلتُ، وأنا أمسك بيد تاشي.

بدت ميليسّا محتارة. لا شيء في تجربتها قد هيّأها لمجابهة هكذا احتمال. لم أشاهد النساء الأخريات في المخيّم. أخبرتنا ميليسّا أنهنّ جميعاً في مهمّات للتحرير. قالت تاشي إنها ظنّت أن من مهام النساء إطعام الدّواب والإغارة على المزارع التّي تُرك أغلبها الآن تحت تصرف خدم إفريقيين مخلصين. أول

فائدة لهذه الغارات هي تجنيد محاربين جدد لتضخيم صفوف ثوّار ميبيل.

دفعتها العملية التي أجرتها للإحساس بارتباط أكبر بهؤلاء النساء، اللواتي تصورتهن قويّات، ومنيعات. نساء تماماً، إفريقيات تماماً، أولينكيات تماماً. خلال رحلتها الطّويلة إلى المخيّم، بدَوْن في غاية الشجاعة، ثائرات للغاية وحرّات. شاهدتهن مستعدّات للهجوم. فقط عندما أخبرتها ميليسّا - بعد أنْ فكّت وثاق رجليها - أن بإمكانها الجلوس والمشي بضع خطوات، لاحظت أنّ مشيتها المختالة غدت عرجاء.

استلزمها الآن ربع ساعة لتتبوّل، ودامت فترات حيضها عشرة أيّام، وأقعدتها التشنّجات نصف الشّهر تقريباً، إضافة لتلك التي تسبق الحيض: تشنّجات يسببها اقتراب الطّمث الذي يستحيل أن يمر خلال فتحة ضيّقة تركتها ميليسّا، بعد ربط جانبي فرج تاشي الدّامي بشوكتيْن أدخلت قشّة حتى إذا ما التأم الجرح، ينمو اللحم المرضوح معاً، ويغلق الفتحة نهائياً. ثمة تشنّجات أيضاً يسببها تدفق دم لم يجد مخرجا فبقي، وهكذا فإن جسدها لم يمتصه من جديد وليس لديه مكان ليذهب إليه. ثمة رائحة أيضاً، دم محمّض، والذي لم يزله أي قدر من الاغتسال، لحين ذهابنا إلى أمريكا.

أوليفيا

كانت رؤية الاستكانة التي آلت إليها تاشي في طريق عودتها، تفطر القلب، لم تعد مرحة، أو مشاغبة. حركاتها، والتي كانت دائماً ظريفة، وسريعة، بشخصيتها الحيوية، غدت الآن بالكاد مجاملة، بطيئة، مدروسة. وانطبق هذا على ابتسامتها أيضاً، والتي لن تقدمها من دون التّفكير فيها أولاً. وبدت روحها تتعامل مع اضطراب مهلك تجلّى لكل من تجرأ وحدّق في عينيها.

أحضرها آدم إلى المنزل حينما كنّا على وشك المغادرة إلى أمريكا. تزوّجها، تولى والدنا المراسم، رغم اعتراضها على ذلك، وكان سيخجل أبي منها في أمريكا جراء النّدوب التي على وجهها. في الليلة التي سبقت الزفاف، حصل آدم على العلامات ذاتها التّي حُفرت على خدّيه والتي تدل على قبيلة أولينكا. كان وجهه الوسيم متورّماً، وابتسامته مستحيلة من الألم. لم يتكلم أي منهما عن علامات الآخر، عن النّدبة الخفيّة بين ساقي تاشي الهزيلتين. النّدبة التي منحتها مشية نساء أولينكا المعتادة، حيث تُجر القدم للأمام من دون أن ترتفع عن الأرض. لم يتكلم أي شخص عن الوقت الطّويل التي تحتاجه في دورة المياه. ولم يتكلم أحد عن الرّائحة.

في أمريكا، تمكنّا من حل مشكلة تنظيف ما خلف النّدبة باستخدام مِحْقَن كما الحنقة البلاستيكية الصغيرة، وجنّب هذا تاشي عناء إحراج جعلها تختفي نصف الشّهر تجنّباً لأي تواصل مع الآخرين، موؤودة افتراضياً.

الفصل الرّابع:

تاشي

اعتاد الرجل الهرم على أخذنا للإبحار على متن قاربه كلما طالعنا يوم دافئ، قاصدين جميع أرجاء بحيرة زيورخ. يزداد وجهه احمراراً تحت الشّمس، ويداه الضّخمتان تتحركان برشاقة وهما تصارعان الأمواج والرّياح. عمره لا يزيد عن شعر رأسه الأبيض النّاعم. كنتُ أقف محتضنة الصّارية، أو أجلس في القارب وأشعر برذاذ منعش وهواء عليل على بشرتي.

بدا أن الطبيب الكهل وحتى آدم مأخوذان بماء البحيرة، والتي كانت أشبه ببحرٍ صغيرٍ بالنسبة لي. شعرت بعينيهما لا تكفان عن النظر إليّ، باستحسان.

قال العجوز لآدم: أجل. إنّ زوجتك تتألّق.

قلت لنفسي: أجل. لعلها إشارة جيّدة.

تاشي- إيڤيلين

شغّل ميزي الموسيقا لنا بحلول الليل. موسيقا من إفريقيا، والهند، وبالي. لديه مجموعة تسجيلات مذهلة احتلت جداراً من منزله. أرانا أفلاماً قديمة بالأبيض والأسود، عن رحلاته. أثناء عرض أحد هذه الأفلام حدث شيء مختلف لي. في أحد مشاهده مجموعة أطفال مستلقين في صف على الأرض. اعتقدتُ في البداية أنّهم فتية، وسرعان ما أدركت أنّهم ليسوا كذلك. رغم أنّ شعورهم حليقة وكل منهم يرتدي إزاراً. لقد استنتج - كما قال - أنّه قاطع عن غير قصد نوعاً من الطقوس المتعلقة ببلوغ الأطفال. كل شيء، على أي حال، قد توقّف، في اللحظة التي دخل فيها هو ومرافقيه المساحة المخصّصة للطّقس. ومما هو غريب أيضاً - كما قال - كيف أن أحداً منهم لم ينبس ببنت شفة، ولم يُحرّك ساكناً، طالما أنه وأبناء جلدته هناك. لقد تجمّدوا حرفياً أثناء تنقل الكاميرا في المنطقة. كان الأطفال على الأرض في صف صغير، مستلقين مع بعضهم على ظهورهم، توقف الراشدون ببساطة عند منتصف نشاطهم، لم يتحركوا، وكأنّهم غير مرئيين. ضحك فقط، وهو يعيد إشعال غليونه، الذي انطفأ، كما يحدث عادة، بينما يتكلم. كانت هناك ديكة كبيرة تتصارع (والتي دخلت كادر التصوير بهيبة) ومشت بحرية تامة، تتبجح تبجّحاً شديداً (كان فيلماً صامتاً لكن بالتأكيد تمكنّا من الإحساس بتأثيراته)، وكان ذلك الصوت الوحيد أو الحركة الوحيدة حين كنا هناك.

استمر عرض الفيلم، لكن شعرت فجأة بخوف عارم دبّ في أوصالي

وأفقدني وعيي. انزلقت بهدوء عن كرسيي على سجادة زاهية الألوان تغطي الأرض الحجرية. كما لو أني صدمت رأسي، إلا أنها صدمة خالية من أي ألم.

كنت في غرفة الضيوف في البرج العالي، عندما استيقظت. كان آدم والطبيب منكبين عليّ. لم يكن لدي ما أخبرهما به، لا بل لم أتمكن من ذلك، إنه مشهد الدّيكة المتصارعة، المصوّر قبل خمسة وعشرين عاماً، أرعبني تماماً. فضحكت على حالي وقلت إنّ سبب فقداني للوعي هو سعادتي الكبيرة، جراء الإبحار بارتفاع يفوق مستوى البحيرة.

بدا الرجل مشككاً ولم يبدُ متفاجئاً في مساء اليوم التالي، حين بدأت أرسم ما صار سلسلة موسعة وأكبر لديكة متصارعة.

وفي اليوم التالي، في زاوية لوحتي، رسمتُ قدماً. تصبّبتُ عرقاً، وارتجفت وأنا أرسمها. لأني أدركت فجأة أن هناك شيئاً صغيراً بين أصابع القدم، وبسببه تريثت الديكة، ثم مضت تختال بنفاد صبر، وتمد أعناقها، وتنفش ريشها، وتتبختر.

ما من كلمات تصف مدى إعيائي وغثياني وأنا أرسم. بينما ينمو الديك في حجمه، والقدم العارية بالكسرة الصغيرة عديمة الأهمية تقترب بثبات نحو ما شعرت بأنها الكارثة، اللحظة التي لا تحتمل، بالنسبة لي. ذلك لأن ـ خلال الرسم وأنا أتعرق، وأرتجف، وأئن بإعياء ـ شعرتُ أنّ كل نظام في جسدي، كل حركة متصلة في تلافيف عقلي، كانت تبذل جهداً لكي تتوقف. كما لو أنّ الجزء الأعظم من كينونتي يحاول قتل الجزء الأوهن منه، وخلال الرسم على حائط غرفة النوم الآن؛ المكان الوحيد الذي بإمكاني رسم الديك بحجم أكبر، تبيّن أنّه قزم بالنسبة لي، سحبت الفرشاة لرسم كل ريشة خضراء قزحية الألوان مرتفعة، كل بقعة ذهبية ضارة في عينه الحمراء العملاقة.

القدم كبيرة الحجم أيضاً، لكنها ليست بحجم الديك.

عندما نظر العجوز إليها سألني: حسناً يا إيڤيلين، أهي قدم رجل أم امرأة؟

أدهشني السؤال بعمق لدرجة أنني لم أجب، وأمسكت رأسي بين يدي كما الوضعية الشهيرة للمجانين.

أقدم رجل هي؟ أم قدم امرأة؟

أنّى لي أنْ أعرف؟

ولكن لاحقاً، في منتصف الليل، وجدت نفسي أرسم تصميماً اسمه «طريق مجنون»، وهو نمط من الشبكات المتقاطعة والنقاط التي تصنعها النساء بالطين على قماش قطني والذي يحكنه في القرية عند كنت طفلة. وعرفت فجأة أن القدم التي رسمتها أعلى هذا التّصميم هي قدم امرأة، وأني كنت أرسم الطيات السفلى من ثيابها الممزّقة.

وأثناء رسمي تذكرت، كما لو أنّ الغطاءَ قد رُفع عن عيني – في اليوم الذي زحفت فيه مختبئة بين حشائش الفيلة – إلى الكوخ المعزول والذي منه جاء صوت الألم والرعب. تحت شجرة، على الأرض الجرداء خارج الكوخ، استلقت فتيات صغيرات في صف، رغم أنهن لم يبدين صغيرات بالنسبة لي. كنت أكبر منهنّ بقليل. بعمر دورا. دورا – رغم ذلك – لم تكن بينهنّ وعرفت غريزياً أن دورا محبوسة وتعذب داخل الكوخ. دورا هي من أصدرت تلك الصرخات غير البشرية التي تردد صداها في الهواء وأوقعت قلبي.

فجأة ساد الصمت في الداخل. ثم شاهدت ميليسّا تجر خطاها خارجة، تجر رجلها الكسيحة، لم أدرك أنها تحمل شيئاً في البداية، ولأنه وسخ وعديم الأهمية فقد حملته بين أصابع قدميها بدلاً عن أصابع يديها. دجاجة، وليس ديكاً، كانت تنبش عبثاً في القذارة بين الكوخ والشجرة حيث الفتيات الأخريات، انتهت محنتهن، فاستلقين. رفعت ميليسّا قدمها وأبعدت هذه القطعة الصغيرة باتجاه الدجاجة، والتّي، كما لو أنها تترقبها، أسرعت باتجاه ميليسّا، ورمت بالقطعة في الهواء، وحين استقرت على الأرض، التهمتها بحركة سريعة من عنقها ومنقارها.

آدم

عزيزتي ليزيت:

كم أودّ رؤيتك، احتضانك، سماع كلماتك الحكيمة. لم أنم طوال الليل، وأنا أكتب خارج الرّواق على ضوء الشمعة، أثناء شروق الشمس على البحيرة. المكان جميل هنا، ومسالم جداً! بمقدورنا أنا وإيڤيلين أحياناً الاستمتاع به، إضافة إلى أحاديث عمك الساحر الموثوقة. كلاهما متوافقان على الأقل. كما تعرفين، خشيت ألا يحدث ذلك. إيڤيلين لا تتقبل الأطباء بسهولة من أي نوع. وعلى مدار السنوات، مالت لمغادرة معالجيها ممدّدين خلال يقظتها.

كما اقترحت، حقيقة أني هنا معها ـ وأن هذه بقعة معزولة وهادئة ـ تبدو أنها تهدئها. كما يبدو أيضاً أنها تحب حقيقة أن عمّك متقدّم في العمر. أحياناً هي تبتهج فقط لدى رؤيته، وتفكر فيه ـ كما أعتقد ـ كما لو أنه سانتا كلوز. وهكذا، إنه نموذج آخر للثقافة الغربية المدهشة والأوروبية التي تعشقها.

لكن لماذا؟ بإمكاني سماع صوتك وأنت تتسألين، لماذا أنا مستيقظ في هذه الساعة، وسهران طوال الليل؟ سوف أخبرك. قبل بضعة ليال، بينما كان عمك يعرض بعض الأفلام القديمة من رحلته لإفريقيا الشرقية، تلك التي سحرتك في شبابك وكانت الحافز خلف رحلتك لإفريقيا، حيث التقينا...! على أي حال، عرض لنا هذه الأفلام بعد يوم من التّنزه والإبحار جنوباً لأقصى شمركن وشمالاً لأقصى كوسناخت. قضينا وقتاً طيباً. وعندما عدنا

إلى المنزل، على عشاء لذيذ مكون من اللحم المشوي والبطاطا التي تمكن عمّك من تركها تطبخ لأجلنا في الطبّاخ القديم بلا نار – والذي ورثه من جدته – ربما، هذا الطبّاخ بلا نار، أكثر مثال جاذب على سحره، طالما أنّه جذب انتباه إيڤيلين! اختصاراً، عند نهاية أحد هذه الأفلام، فقدت وعيها، تصلّب جسدها كجثة، وعلق لسانها في تجهم شديد، ومما زاد الأمور غرابة، أنّها كانت مفتوحة العينين. اعتقدنا لبرهة أنّها فارقت الحياة حتماً. لكن عندما عُدناها لاحقاً حاولت الضحك على المسألة برمّتها، وقالت إنها لم تعتد على ممارسة الكثير من الأنشطة – الإبحار والمشي وتناول الطعام – بارتفاع غير مألوف.

رغم أن لدينا غرفة في فندق في شمركن، إلّا أنّنا قضينا بعض الليالي مع عمك، خاصة عندما كان هو وإيڤيلين يعملان معاً، وهكذا قضينا الليل في غرفة الضيوف ليلة حدوث ذلك. نامت إيڤيلين بعسر، وفي الصباح استيقظت باكراً وبدأت الرّسم، حتى قبل تناول الإفطار.

بدأت برسم دجاجة – مراراً وتكراراً – على ورق أكبر شيئاً فشيئاً. صار الحجم جنونياً على الورقة التي حملتها بيدها وبدت تتقلص مقارنة بالطائر المهول الذي في ذهنها. ثم كانت هناك مسألة كيفية دمج اللوحات التي رسمتها – والتي أعطاها عمك لها بلطف – لتصنع شيئاً أطلقت عليه اسم الكروم الأسود المخضر. كانت مجنونة لتصنيع هذا اللون، وبهذا اللون فقط لوّنت ريش ذيل المخلوق المرعب. كان مزاجها نزقاً، ومؤذياً، وهي تمزق الرسمات الأصغر إلى قطع متناثرة كما قصّت شعرها، حدث كل شيء وهي غافلة عن وجود عمك، الذي جلس على كرسي خارجاً قرب البحيرة، يقرأ، أو يتظاهر بذلك، أو لمحاولاتي المحتارة لإصلاح إناء مكسور لاحظته ملقى في زاوية قرب المصطلى. بدا أنّه قبل الكولومبيين، فأمسكت بقطع الفخار وألصقتها بحذر.

فجأة، غادرتنا، وقد أخذت ألوانها وفراشيها. وعلا صوت قرقعة ضلفة الباب في غرفة الطابق العلوي. ثم حلّ الهدوء. سُمِع فقط صوت

الماء، وتغريد الطيور، وهزيز الريح بين أغصان الأشجار. أصلحت الإناء، قدر استطاعتي نظراً لفقدان ثلثه. كتاب الطبيب الآن على ركبته، كأنّه نائم.

وعندما حل المساء، تجنّبت الصّعود للنوم. بدا كل شيء هادئاً هناك في الأعلى، ولم أرغب في التسبب بأي إزعاج، تمنيت لو أنّ الإرهاق قد أصاب إيڤيلين لتغط في نوم عميق أشبه بغيبوبة تنيمها لأيام. لكن عندما وجدت نفسي أصعد السلالم، لاحظت النور متسرباً من تحت بابنا. فتحت الباب، واجهت إيڤيلين، كانت ما تزال منهمكة بالرسم، رغم مضي اثنتي عشرة ساعة أو أكثر! إنّها ترسم الآن مخلوقاً هائل الحجم له ريش، غاية في الشر والخطورة بحيث يصعب منحه اسماً بسيطاً كدجاجة أو ديك، مباشرة على جدران عمك التّي كانت فيما مضى بيضاء.

بدا أنها ستنهار من الإعياء، لكن، لدى سماعها صوت دخولي، استدارت وحدّقت فيّ ساهمة الفكر تماماً، ذلك لأنها لم تتكلم أو تكترث لوجودي. استدارت وعادت إلى لوحتها الضخمة، كما لو أنها قذفت نفسها في خضم اللوحة.

تجمّد الدم في عروقي، ليس فقط بسبب المرض الغريب الذي ألمّ بها، فقد اعتدته، بل للتخريب الذي كانت تقوم به، غير آبهة بمنزل عمك، وباللوحة ذاتها. طبعاً، لم أدرك مقدار أهميتها بالنسبة إليها، إلا أنني أحسست، ومن دون معرفة ذلك، أنّ الشرّ الذي كانت تجابهه عميق في روحي.

وهكذا يا ليزيت، استيقظت باكراً بعد ليلة حرمت فيها من النوم.

أثق أنك بخير وأنك ستواصلين الكتابة لأعتني بعمك. رسائلك تمدّني بالرّاحة والقوّة، وكيف لا وبين طيّاتها معرفة تمتد لسنوات. أعتبر صداقتك أعظم هبة في حياتي.

المخلص لك،

آدم.

تاشي

وأخيراً عندما أنهيت لوحة «الوحش»، كما بتنا نشير إليها نحن الثلاثة، كنت غاية في الإنهاك جسداً وعقلاً. ارتميت على السرير ونمت. استيقظت في وقت متأخر من مساء اليوم التالي على صوت الريح تتخلل الأشجار، وأمواج البحيرة ترتطم برفق بالشاطئ، والصوت الصامت للأصوات. لم أكن في وارد أن آتي بحركة. استلقيت كما ارتميت، بالكاد أدرت عيني الواعيتين ببطء إلى اليسار، نحو الجدار، لأتملى بناظري تحديقة مخلوقي اللعينة. لم يعد يخيفني. في الواقع، شعرت كما لو أني أشاهد سبب توتري للمرة الأولى، تماماً كما كان. بدا الدّيك أنوفاً بلا شك، ومغروراً، ومتبجحاً، وهو كذلك بسبب التزامه بالخنوع.

حدّقت بالقدمين، كسيحتيْن، وحقيرتيْن، وغبيّتيْن، كما لو أنهما مفصولتان عن جسد المرأة أعلاه. ميليسّا. وهنا انحسرت سريعاً السكينة التي حلّت على ذهني. أحسست أنّ مشاعري تثور بألم نحو طرف مئزرها، وفتك الاكتئاب بي، نأيت بعينيّ المملوءتين بالدّموع عن رأس آدم الوسيم في اللحظة التي وقف فيها عند الباب، وخلفه ميزي الذي يحمل صينية.

جلبا حساء ذيل الثور، وخبز شاودارو، وجزراً، وحزمة بقدونس، وكأساً من نبيذ التّفاح الدّافئ وباقة ورد. أسندوني على السّرير بلطف وأمطروني بتعبيرات رقيقة متوقعة. سلّوني وأنا آكل عبر سرد مغامرة الطبخ التي خاضاها وهما يعدّان الوجبة. صنع العجوز الحساء حسب وصفة يتذكرها من والدته، وخبز آدم الخبز. البقدونس والجزر والزهور كانت من

الحديقة خلف المنزل. اعتذر ميزي على صلابة الجزر الذي ترك في الأرض لفترة طويلة، لكني تلذذت بها جميعاً. أليافه نظّفت وأنعشت فمي ببرودة، هذا مريح.

يجب أن أعتذر عن كل هذا ـ قلتُ لهما ـ وأنا أشير إلى وحشي.

إنّه ضخمٌ بلا أدنى شك، قال آدم. صمتَ بعد ملاحظته هذه؛ لأنه يعلم علم اليقين أنّنا سنناقشها لاحقاً.

لا تعتذري، قال لي ميزي. نظر بتركيز إلى اللوحة، ثم استدار ومشى إلى كرسي عند النافذة في الطرف الآخر من الغرفة. من هناك نظر إليها مجدداً.

بعد ساعة تقريباً من التأمل قال: إنها مميزة.

في النهاية، تقدم وأخذ الصينية. كنتُ قد تناولتُ كل شيء، وسرّه ذلك. كان يرتدي أحد مآزره القطنية، وكانت هناك علائم صنعه للحساء من وصفة أمه بادية عليه. بقعة دم صغيرة بانت بنية اللون على خصره. نظرت إليها بهدوء. خشيت رؤية الدم لوقت طويل. وجاء وقت لم أعد حتى ألحظه، وإن جرحتُ نفسي، سواء عن قصد أو عن غير قصد.

لهذا عليّ العمل باستمرار ـ قال ميزي ـ كما لو كان يكلّم نفسه بعد أن غادرنا آدم. المعالجة ليست وظيفة برجوازية. تنهّد بعمق ثمّ جلس إلى جانبي على السّرير وأمسك يدي.

لون يدي الرّمادي على بشرة يده الورديّة كان جميلاً. نظر إلى يدينا بتملٍ للحظة.

ينتابني فضول حول شيء ما، قال.

أجل؟ قلتُ بلغتي السويسرية المصطنعة والتي كانت تثير ضحكه دائماً. باستثناء كلام الطبيب الهرم، وجدتُ أنّ اللغة السويسرية لا تحتكم على ذكاء بتاتاً يغوي بالتحدث بها. لكن لعلّ سبب ذلك هو تهكّم بقية دول العالم على لهجتهم الغريبة وطبقة صوتهم العالية المثيرة للفضول. على أي حال، أحببتُ ترديد كلمة «أجل» بالسويسرية. بدت سخيفة على لساني مما جعل ميزي يبتسم.

كان يبحث عن غليونه، والذي كان بارزاً من جيب مئزره.

ـ هل تشعرين بتحسن بعد إتمام اللوحة؟ سألني، وقد عثر على غليونه وأشعله. هل تشعرين بتحسن في ذاتك؟

ـ تحسن محدود، أجبته من دون تردد.

الدموع التي تبخّرت عند ظهور ميزي وآدم تنهمر الآن على ذقني. عند انتهائي من رسمها، واصلت التحدث بصوت متّزن، بهدوء كما لو أني لم أكن أنتحب، تذكّرتُ... أختي، ... أختي، لم أستطع الاستطراد. كان هناك ثقل جاثم في حلقي، وقلبي ينبض بتعاسة. عرفت أصل الثقل. كان كلمة؛ وأنّ خلف هذه الكلمة سأجد مشاعري العتيقة. أحاسيس كانت قد أرعبتني حد الجنون. كنت سأقول قبل أن يقبض الثقل على حلقي: وفاة أختي، فلطالما فكّرت باحتضار دورا. ماتت ببساطة. لقد نزفتْ ونزفتْ ونزفتْ حتى الموت. لم يكن أحد مسؤولاً. ما من أحد يلقى عليه اللوم، أخذتُ نفساً عميقاً وزفرتُه على الثّقل المستوطن حلقي: تذكرت مقتل دورا، قلتُ له، فجّرتُ الثّقل. شعرتُ بغرز مؤلمة تخيط جسدي ودموعي بروحي. لن يعود نحيبي مفصولاً عما عرفته. بدأتُ أئن، هناك بين ذراعيّ ميزي الهرميْن. بعد وقت طويل، جفّف وجهي، ومشّط شعري، وهدأني بعناق أمومي تصادف مع لحظة الفواق، حين انحسر بكائي.

ـ لم يكتشفوا اختبائي بين العشب، قلتُ له. لقد أخذوها إلى المكان المخصص للختان، مكان معزول وقصي محرم على غير المختونات. يشبه المكان الذي أريتنا إياه في الفيلم.

ـ آه. قال ميزي.

ـ صراخها في أذني منذ حدث ذلك، قلتُ له ثمّ شعرتُ فجأة بتعب شديد.

أعاد الكهل إشعال غليونه، والذي بدا محشواً بدموعي.

غير أنّي لم أتمكن من سماعها، تنهّدتُ.

– لم تجرُئي على ذلك، قال الرجل العجوز.
لم أفهمه، ورغم ذلك كان لما قاله معنى.
ربّتَ على جبيني برقة، ثمّ قام بصمت وتركني لنوم طويل جداً.

ميزي

عزيزتي ليزيت:

لم ينادني أحد ميزي مذ فعل الكينيّون ذلك بمنتهى العفوية قبل ربع قرن. وحينها أيضاً كان شعري يشتعل شيباً، وظهري بدأ ينحني. وبتّ أرتدي نظارة طبيّة. ومع ذلك، شعرت بطريقة ما أنهم يقصدون شيئاً غير عمري، ثمّ نادوني بـ «الكهل». صفة إجلال يعرفونها أو كبح للذات. لعلّي أُثني على نفسي، كما يفعل البيض عندما يقدم السود لهم وصفاً كريماً لشيء في شخصيتهم، لكنهم لم يلحظوه من قبل في أنفسهم، ربما نتوقع فقط التّجريح منهم في قرارة قلوبنا؛ كلمة «شيطان» على الأقل. حيثما ألقيت المحاضرات، وفي أي مكان في العالم، كان يذهلني كون جملتي الوحيدة التي قدّرها كل ملوّن ووقف ليشكرني عليها هي «أوروبا أم الشر كلّه»، ومع ذلك كانوا يصافحون يدي الأوروبية، مبتسمين برقّة لي، وبعضهم ربّت على ظهري. يختار لنا الإفريقيون نعوتاً يستوحونها من تصرفاتنا. «المتأفف» بات اسم زميلي المستعجل دائماً. وأكثرنا شجاعة لُقِب بـ «الشره». وأطلق على أكثرنا سواداً في مجموعتنا «قمر العشية»، وللحقيقة، كان ما يشاهده المرء هو إشراق سواده.

تجربة جديدة هي، أن تعيش مريضة على مقربة منّي، في منزلي. في مُعتزلي! المكان السّري الذي أذهب إليه لعلاج نفسي. توسّلاتك فقط هي التي دفعتني لذلك. وبما أنّ آدم وإيڤيلين هنا، وقد بدوا متواجدين هنا منذ البداية. أحياناً، عندما أجلس في الخارج عند البحيْرة وأنظر إلى المنزل

الكئيب، تكون إيڤيلين تنظر إلى الخارج في اللحظة ذاتها، تصعقني حقيقة رؤية وجهها الأسود من نافذتي. وتوقظ فيّ مشاهدة محاولة آدم إصلاح زنبرك ساعة جدّي، أثناء جلوسه تحت أشعة الشمس على عتبة باب بيتي، حُرقة، هي ذكرى في الواقع.

إنهما في معاناتهما التي لا توصف، يستدعياني إلى وطني لشيء في نفسي، وأنا أجد ذاتي فيهما، وقد درجت على أني في منتصف المسافة إلى الوطن في القارة الأوروبية. ففي جلدي الأوروبي. ذاتٌ قديمة تتشهى معرفة تجارب أقاربها القدماء. تحتاج هذه المعرفة، والمشاعر المصاحبة لها، لتكون كاملة. ذاتٌ مرتعبة لما فُعل بإيڤيلين، لكنها تميّزه كشيء فُعِل بي أنا أيضاً. ذاتٌ حقيقية تماماً. هذا هو جوهر العلاج الذي في حياتي (المهنية) الأوروبية التّي فقدتها.

على أي حال، يجب أن أسأل إيڤيلين عن سبب عدم خوفها من أبراجي.

المخلص الحيران،

عمّك كارل

الفصل الخامس:

أوليفيا

السجن الذي اقتيدت إليه تاشي شيّد إبان الاستعمار، قبل ثلاثين عاماً من الاستقلال تقريباً. تم بناؤه في الجانب «البلدي» من القرية في زمن كانت القرية صغيرة المساحة. شوارع ضيقة تحيط بالمنازل الخشبية المبنية على طراز المزارع الفكتورية، بشرفات مظللة وعميقة حول مربع صغير مركزي، يتخيّل المرء فيها أن سيدات بيضاً يتجولن مختالات في فساتين حريرية يحملن باستمرار المظلات المتناسقة المقلمة. وماذا يوجد غير ذلك لهنّ، وقد ابتدعن ثمّ أعدن إنتاج مفهوم رب الأسرة؟ وثمة معبر، باتجاه المنازل الأكثر فخامة المتحلقة حول الحديقة، لا يزال يطلق عليه «زقاق السّيدات البيض»، وعدا السياح فإن عدداً قليلاً من الناس يعبرونه الآن. ويشغل المنازل الآن المسؤولون الحكوميون وموظفو الخدمة المدنية. في الأيام الخوالي، وبعد الاستقلال مباشرة، انتقل السود إليها لكنهم هجروها مجدداً، ما إن تمكنوا من بناء مخيّمات أكبر وأكثر خصوصية وأبعد عن القرية، والتي غدت ضرباً من ضروب المدن الإفريقية النّموذجية. زقاق السّيدات البيض – على سبيل المثال – لم يعد يفضي إلى حديقة حافظ عليها (المبشرون الأفارقة) وما عادت مساحة للتنزه أو تشميس الأولاد الشاحبين فقط، إذ إنها تحولت إلى سوق، بأكشاك ملونة متداعية، ومداخن تتصاعد منها روائح ذكية، بينما الباعة يتجوّلون حاملين بضاعتهم يجادلون بالأسعار بأصوات ناشزة، يتذمّرون من منع صيد صغار الحيوانات لذبحها.

يطل السجن من بعيد على ما سبق ذكره، وعلى صف من سقوف الأكواخ، وصف من المكاتب الحكومية. وأحد أسباب بناء السّجن على تل ـ تبعاً لأسطورة تُروى عنه ـ هو أن في الأيام التي سبقت الاستعمار، كان السجن بالقرب من المدخل، ثم جرى تغيير موقعه، وقد كان أيضاً موقعاً عسكرياً وموقعاً للتّحكم مصمم لبث الرّعب والقمع الفعّال لأي ثورة بين الأفارقة. أحاطت الخنادق والمدفعية به، وسط أرض تكسوها الجنيبات والشجيرات المغبرة، من مثل: الجهنّمية، والجكراندة وزهور الخطمية.

لم أشاهد قط السجن قبل الذهاب مع آدم لزيارة تاشي من قبل. طلاؤه أبيض، من الخارج، أما من الدخل فهو مخطط بالبنّي، مع بقع من الإسمنت الرمادي وعدد من الأعمدة السوداء التي تتوسّط الزوايا، وعدد كبير من نوافذه مهشّم أو بلا زجاج تماماً، بالكاد بدا مأهولاً. وبلا شك لم يكن كذلك في الواقع. كان السجناء مكدسين فيه وصولاً إلى الأعمدة الخشبية. من كل الأحجام، والأشكال، والفئات العمرية. ومن الجنسيْن. يفارق المرء صمت الشارع النّسبي ليصطدم بجدار من الضّجة والنّتانة. خُصّص الطّابق الثّاني لإقامة ضحايا مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز)، أرسلوهم إلى السّجن بدل المستشفى لأنّ الأخيرة صغيرة وقد غمرتها السّيول. ولعام كامل تقريباً لم تقل الحكومة شيئاً عن وجود الإيدز في البلد، اعترفت بوجوده قسراً، رغم عدم وجود تخمين رسمي لأسبابه في الصحف. لم تكن هناك ضوضاء من أي نوع في هذا الطابق، حيث الرجال، والنساء والأطفال، وسائر المُبْتلين، إذا لم يعتنوا ببعضهم البعض، كانوا يستلقون ساكنين على حُصرٍ على الأرض، منهكين كما لو أنهم أموات، لم ينتبه أيٌّ منهم لوجودنا عندما نظرنا داخله.

أثناء صعودنا سلالم الطّابق الثّالث، التفتُّ نحو آدم وقلتُ، في محاولة لإثارة الضّحك: أريد الذهاب إلى الوطن.

وهذا ما يجب أن نفعله جميعاً. أجابني متجهماً، وبنظرة رجل محزون وعاجز ارتبط بامرأة والظروف على الدوام تفوق قدرته.

بينتو موراغا (بيني)

ـ لا يتغير شيء أو يتحقق إلّا بواسطة المال. قلتُ لأمّي، وأنا أسترق النظر إلى أوراقي المالية.

ـ يجب ألّا تفكر بهذه الطريقة ـ قالت لي ـ وهي تنظر خارجاً عبر النّافذة. فرأيك هو رأي الإفريقي الجديد.

ـ لكن تأمّلي ما تملكينه هنا، قلتُ لها وأنا أشير إلى جدران زنزانتها المطلية حديثاً، وكرسيّها البلاستيكي ذي اللّون الأحمر القاني، ومكتبها، وأدوات الكتابة والكتب.

قالت وهي تبتسم: لا يمكن أن أشعر بالذّنب، فأنا في السجن فعلا.

بادلتها الابتسام. أحببت شخصية أمّي وهي في السّجن. كانت دافئة وتبعث على الراحة، كما لو كانت شخصاً مختلفاً تماماً عن الأم المستسلمة والمتجهمة التي كنتُ أعرفها.

ـ لا يملك كثير من المساجين زنزانة خاصة بهم، قلتُ لها.

ـ صحيح، في تأييد لكلامي. فقط المتنفذون سيشترون حريتهم ويتملّصون من العقوبة أيضاً. تجهم وجهي، ولوهلة بدت كأنها المرأة الأخرى.

سمعنا صوت المتنفذين في نهاية الممر. يلعبون الورق طوال اليوم، ويستمعون للراديو ويشربون البيرة. وعلى عكس زنزانة أمي، فزنزاناتهم لم تقفل البتّة، ولهذا كانوا يتبادلون الزيارات لوقت متأخر من الليل، وكانوا يزورونا أحياناً، ويجلبون البيرة لأمي في فترات متفرقة، وقد قبلتها منهم.

لم أفهم «المتنفذون» حتّى شاهدتُ القضاة في محاكمة أمي. بالتأكيد ارتدوا شعوراً بيضاء مستعارة[1] ضخمة، أطرافها السّفلية ملفوفة. ضحكت أمّي عليها، وشعرتُ أنّهم انتبهوا إليها وأحسست بأنهم سيعاقبونها عليها حتماً. كتبتُ ملحوظة لنفسي أثناء جلوسي لمتابعة مجريات المحاكمة في قاعة المحكمة.

هناك الكثير من الأشياء التي لا يمكنني القيام بها - قيادة سيارة على سبيل المثال - أو حتى التفكير بذلك. اعتدتُ على الإحساس بأن شيئاً غامضاً مرتبط بعدم ارتيادي للمدرسة. ارتدتها، لكن في مرحلة ما شعرتُ أني حرفياً أسقط من أعلى المنحدر. كان من المريح في نهاية المطاف أن يُفسّر لي - لا من قبل أمي أو والدي بل من معلمتي - أني كنت عاجزاً نوعاً ما، شيء له علاقة بذاكرتي، فمن البشر من هم طوال ومنهم القصار، ومنهم من يستطيع التّفكير بأفكار أطول أو أقصر مدى من الآخرين. لا داعي للقلق! قالت معلمتي، الآنسة ماكميلان، وهي تضحك. أنت تملك قدرة تركيز عالية وهي التي يمتلكها متوسط مشاهدي التّلفاز الأمريكيين. وهكذا تجنّبتُ الشعور بأني مميز بشكل سلبي، عندما أعاد والدي صياغة حديثها.

ومع ذلك، مرت أوقات تمنيت فيها تذكر اسم الشيء الذي أرسلتني أمي لشرائه من المتجر. تمنّيت لو أن بإمكاني فعله ودون كتابة القوائم: قائمة للتبضّع، وقائمة للمدرسة، وقائمة للأشياء التي سآخذها أو أحضرها بعد ظهيرة من اللعب في فناء الجارة، وقائمة من أسماء الشّوارع التي ستقودني إلى المنزل. لا شيء مما يُطلب منّي إنجازه يعلق في ذهني، ولا أتذكّر حتّى إنهم طلبوه مني. لا يشدُّ انتباهي إلّا نظرة من وجه أمي الغاضب، لكن لبرهة فقط. ثمّ أنساها هي الأخرى.

إحدى عبارات أمّي المفضلة لدي هي: من العجب العُجاب أنّك لم تنسَ أنّي أمك! لم أنسها. شعرت بأني مرتبطٌ برائحتها الدافئة، والمُحبّبة، والرقيقة. شعرت أن بإمكاني قضاء جلّ حياتي بسعادة تحت أحد إبطيها. وهذا مما لم

1- ـ لعب على كلمة bigwiq التي تعني «المتنفذ» و wig شعر مستعار. المترجمة.

أذكره لأحد لأنّي شعرت أنّه سيهينها. كانت أمّي تستحم بانتظام، كما لو أنّها ترغب في التّخلص من أي رائحة من أي نوع؛ الرائحة المقبولة بالنسبة لها هي صابون (بالموليف)، دهان (بوند البارد) أو مرطب (نيفيا). أن تكون برائحتها الطّبيعية بدا أكثر من قدرتها على التّحمل. حتى الآن، وهي في منتصف العمر، أحبّ ضمّها التماساً للدفء، رغم أنّ ثني جسدي الهزيل في شكل يلائم المعانقة تحت عنقها هو عمل لا يستهان به. بالكاد تتحمل التوائي، فتتحرك مبتعدة عنّي فوراً.

إذا أردت الحديث معها أو مع أبي عن أي موضوع، فعليّ تدوين ملاحظات عنه لنفسي. عليّ التّمرن على ما سأقوله وكيف سأقوله، تماماً كما يستعدُّ الآخرون لاختبار يجهلون موضوعه، ولهذا يحتّم علي دراسة، وتحديد كل موضوع مع المحيطين بي.

آدم

كان صيفاً، فجلسنا على الكراسي الطويلة تحت أشجار الزّيزفون في الحديقة خلف منزل ليزيت. كانت ليزيت تحيك صوفاً أزرق رفيع الخيط في الطقس الحار، وذكرت ملحوظة غيّرت حياتي للأبد.

قلتُ لها إنّ الطقس حار للغاية على حياكة الصّوف. إلا إذا ـ أضفتُ وأنا أبتسم لها ـ كنتِ تتوقعين تجمّد قدميك في الشتّاء المقبل.

ـ قدمان صغيرتان في غاية البرودة ـ قلتُ لها ـ دون النظر لأعلى.

وهكذا علمتُ بشأن بيير الصّغير.

كنت دائم الحذر مع ليزيت. وأكثر من المعتاد، عندما نمارس الحب، لم أخترقها. علاقتنا كانت علاقة صداقة وحزن متبادل وشغف أيضاً، إلا أنها علاقة صداقة في المقام الأول. أمضيت ليالٍ كثيرة في سريرها الأبيض المنتفش، وأنا أطوّقها بين ذراعيّ، وأنا أشعر باضطراب بشأن حياتي الخاصّة مع إيڤيلين، وكان النوم كل ما أتوق إليه.

من ناحية أخرى، كانت هناك لحظات ضعف، والتي كانت، في نهاية المطاف، كل ما يحتاج إليه المرء.

ـ لن تحصلي عليه طبعاً، قلتُ لها.

عنق ليزيت، والذي أشرتُ إليه أحياناً على سبيل المزاح بالعنق الفرنسي المتورم، صار أكبر حجماً بشكل واضح. كان أوضح دليل على غضبها، خوضها آلاماً عقلية عظيمة لإخفائه. كان عنقاً مكابراً، لا بد أنه العنق نفسه الذي امتلكته جان دارك. وهي تنظر إليّ، شاهدته وشاهدت نصف جسدها العلوي، تحت فستانها الأبيض الخفيف، قرمزيٌّ محمر.

ـ ليس من شأنك، قالت وهي تحيك بغضب، قطرة عرق نزلت باتجاه زاوية عينها البنية الصّافية. بدت في غضبها كما تخيّلت مدام ديفارج[1] تقريباً، وثمة شخص ما جالس أمامها يحجب عنها منظر المقصلة.

ـ ليس من... لم أستطع الإكمال. نظرتُ إليها، بصمت مطبق.

قالت لي: لعلّه ليس من صلبك. ربما حظيت بعشيق أو عددٍ من العشّاق خلال أشهر انفصالنا عندما كنت مع زوجتك المجنونة في أمريكا.

لم تكن هذه طريقتها المعتادة في الحديث عن إيڤيلين. جرحتني.

الصمت الذي حلّ بيننا قضى عليه بطريقة ساخرة طنين نحل جارها، وهو يدخل ويخرج من خلاياه الخشبية، لقد صنع هذا النّحل العسل الذي حلّى قهوتنا وشاينا، أكوابنا الفارغة تنضح برائحة عمله الدؤوب. قال صوت بوضوح: وتستمر الحياة. ألمها أكيد، وحلاوتها يكتنفها الغموض. لا علاقة لنا بشجاركما. قد تتحولان إلى حجريْن، ولا يعني هذا إلّا هروبنا لحديقتكم وامتلاكنا لحديقتنا أيضاً.

ـ إنّه ابني، قلتُ أخيراً.

قالت وهي تضع ما تحيكه جانباً، صحيح لكنّه ابني أكثر مما هو ابنك.

ـ متى؟ سألتُها. لسوء الحظ لم أتذكر أي لحظة بيننا فيها حنان مميز. من ناحية أخرى، وبشكل عام، الحنان اخترق صداقتنا.

هزت كتفيها استنكاراً.

ـ عند وجودك هنا طبعاً، في أبريل، عندما جئت لتخبرني أن تاشي قد هربت منك. وحتّى من قُبلاتك.

1- شخصية في رواية «قصّة مدينتين» لتشارلز ديكنز. المترجمة.

ليزيت

أنجبتُ بيير في المنزل على سرير جدتي. بياتريس جدتي، التي أمضت حياتها وهي تحارب لإثبات حق الفرنسيات في التّصويت. سريرٌ خشبي منخفض صنع للمنزل في القرن قبل الأخير ولم يغادره. السرير ذاته الذي أُنجبت عليه أمّي، وولدتُ أنا عليه. تغذّيت جيداً خلال فترة حملي، ومشيت طويلاً في أرجاء باريس كل يوم تقريباً. والدي ووالدتي، بعد أن تغلّبا بدرجة كبيرة على فورة غضبهما الطبيعية، والعرقية، وتخطيهما الصدمة، أغدقاني بالنّصح والعاطفة. كان ملحوظاً، بطريقة رسمية تقريباً ـ «حسناً، لا يمكن فعل شيء!» قالت أمي أخيراً ـ بلا مبالاة بعد ذرف الدّموع الأليمة ـ إنّي ورثت جينات جدّتي، والتي كانت طرفاً في علاقة لم تسفر عن إنجاب أطفال، مع الغجر والأتراك وعابري السّبيل الفلسطينيين اليهود، وحتى أسوأ من ذلك، مع الرّسامين المفلسين الذين يمكن العثور عليهم حرفياً في علية في منزلها الصغير حيث يقتاتون، ومن جديد حرفياً، على جرار المربى وفُتات الخبز.

كانت لدي أكثر قابلة مرغوبة في فرنسا ـ عمتي خفيفة الظل ماري تيريز، المتخصصّة في التّوليد، صاحبة فكرة متطرفة مفادها أنّ على المخاض أن يشعر المرأة بالإثارة قبل أي شيء. لم أستمع لشيء إلا للموسيقا الدينية أثناء حملي ـ موسيقا جديدة عليّ تماماً ـ والخلافات، وأنشودة «سبيلها السّريع للجنة» («... لا شيء يرتقي إلى هناك، سوى السّريرة الصّافية...») كانت تُسمع من جهاز التسجيل خلال ولادتي، دفء أصوات المنشدين

مرافقة رائعة لنار متقدة في المدفئة. زُيّت مهبلي ودُلِّك لجعل وركي مفتوحيْن وغِمْدي زلقاً، كنت في منتهى النّشوة. انزلق بيير الصغير عملياً إلى العالم عند الذّروة، مبتسماً بهدوء حتى قبل أن يفتح عينيه.

وضعته عمتي على بطني فور رفعه من بين فخذي، لأنّها انتظرت انقطاع الحبل السري حتى يتمكن من التنفس لوحده، وهكذا، واصل قلبانا الخفقان على وتيرة واحدة كما كان في رحمي. مشاهدة جسده الأسمر الأملس وشعره المُموّج الرّطب، جعلني أشتاق لآدم. ولكن ـ تنهدت في النهاية ـ وسرعان ما غرقت في متعة المعجزة التي شعرت بها وقد صنعها الكون وحده.

عندما تمكن من المجيء إلينا قال إنه أحسّ بالحرمان؛ لأنه لم يحضر ولادتي.

ـ لكن ما السبب؟ سألتُه. كنت تعرف موعد ولادته.

ـ كما أن إيڤيلين عرفته، أجابني.

الفصل السّادس:

تاشي- إيڤلين

لم يكن الطقس حاراً داخل قاعة المحكمة. صوت مراوح السّقف، وهي تدور، أشبه بأصوات مبحوحة تحاول تنقية حنجرتها. النّوافذ الصغيرة العلوية مفتوحة على مصراعيها لتدخل أي نسمة هواء. أرتدي فستاناً قطنياً أبيض من رأسي حتى أخمص قدمي؛ اشترت أوليڤيا ثياباً لي من متاجر السيّاح. حتى الآن، شعرت بقطرات العرق تنزل إلى منتصف ظهري، ثمّ تتساقط بسرعة الزئبق إلى حزامي المبتل.

أمضيت الصباح وأنا أستمع لكلمات أولئك الذين شاهدوني في رحلتي. الرّجل الذي باعني الأمواس، وشخصٌ بدينٌ أرمص العينين يعترف أنّه طلب سعراً أعلى لأني أجنبية. قال إنه رغم تحدّثي بالأولينكية تمكن من معرفة أنّي أمريكية من فستاني. تلته امرأة باعتني برتقالة، وأنا أصعد الحافلة في محطة أومبيري. كانت طاعنة في السن وبلا أسنان. لثيابها رائحة كريهة واضحة، ولذلك حافظ كلا المحاميّين على مسافة منها وهي تتعرق ويسيل لعابها هناك على منصة الشّهود. ورغم ذلك، فإن امرأة شابّة هي من أطاحت بي. كانت هزيلة وسمراء، بشفتيْن مطليّتيْن بأحمر شفاه زهري فاتح يميل للون الأبيض وأظافر مطلية. لقد وضّحت بالإنجليزية أنّها مالكة متجر الأوراق، عند ناصية استقلال الحافلة. تتذكرني لأنّي دخلت المحل وبحثتُ ثمّ طلبتُ منها أن تجد لي رزمة من الأوراق البيضاء لأصنع منها لافتة.

قالت: وعلى أي حال، كنت قد غيّرت رأيي بشأن شراء الورق الأبيض فور أن جلبتها لي.

قالت إني قلتُ: لا. الأبيض ليس شريراً هذه المرّة. اجلبي لي أوراقاً بألوان علمنا.

ساد القاعة هرج ومرج عندما قالت جملتها هذه. شعرتُ أنّ هناك أعيناً إضافية تثقب قفاي. لمس القضاة خطأ شعورهم الطبيعية المجعّدة عند أطراف شعورهم المستعارة المنسابة والناعمة.

- وهل ابتاعت المتهمة هذه الورقة يا آنسة؟

يقف محامي الادّعاء الآن أمام الشّابة على المنصّة، الورقة بالأحمر القاني، والأصفر، والأزرق المرفوعة أمامه.

مرّت أوقات لم يبكني فيها بإباء إلّا ألوان العلم. أنا أنظر إليها الآن بلا شغف كما لو كانت ألواناً في علبة ألوان طفل.

ومن العجيب، وجود عدد قليل من كبار السّن في نهاية قاعة المحكمة، والذين وقفوا، ثمّ وضعوا أيديهم على قلوبهم؛ لأنّهم كانوا ثوّاراً في الأدغال في شبابهم، حاربوا (لا يمكنني مشاهدتهم طبعاً؛ أسمع فقط، بصوت خفيف حركتهم، وصرير مفاصل، وتحرك أقدام. لا أتعجب منهم الآن. سيخبرني عنهم آدم وأوليفيا لاحقاً. وبدلاً من العلم أفكر بموطني الجديد، أمريكا. أرى، ببصيرتي، ذلك العلم الأحمر والأزرق والأبيض. ألوان معانيها مبهمة بالنسبة لي. عَلَم خاطته امرأة).

وبتردد، أعاود التّركيز على المرأة التي تدلي بشهادتها. أفكر بمعنى كلمة «شهادة». تعني بالأصل: عادة يمسك فيها رجلان بخصية بعضهما إعراباً عن الثقة المتبادلة، تحوّرت لاحقاً إلى مصافحة. أتخيّل يد المرأة السوداء والناعمة وهي تقبض على خصيتي المحامي الشّاب، أظافرها المطلية باللون الوردي متشبّثة بشعر عانته المتشابك. ما الذي نفعله في قاعة هذه المحكمة الحارّة، تقول له، وهي تحك صدرها الأسود بصدره النّاعم والخالي من

الشعر، النهار جميل في الخارج في الواقع. وجه المحامي فيه نظرة التركيز الفضولية تلك لرجل مستثار؛ إنّه... لكن يجدر بي التّركيز، أظن، وأنا أدير رأسي ببطء على عنقي؛ إذا لم أحذر، فسوف أتخيّل رومانسية متأججة، وأفوّت متابعة محاكمتي كما تقول لي أوليفيا.

تقول المرأة إنني اشتريتُ الورقة وقلماً سحريّاً وجلستُ على الأرض مباشرة لأرسم شعاراتي.

ـ أي شعارات شاهدتِ المتهمة ترسمها؟ سأل المدّعي.

ـ شعار واحدة فقط، أجابته.

هلا أسديت لهيئة المحكمة الموقّرة خدمة وأخبرتنا كيف قرأتِ هذه الإشارة، وما الذي كُتب عليها أيضاً؟

ـ أرتني إيّاها، قالت الشّابة.

ـ أرتكِ إيّاها؟

ـ أجل. قالت لي: أنتِ امرأة شابة والحياة أمامك. وأنا امرأة عجوز وحياتي على المحك. وكل ما بوسعي هو تحذيرك من كارثة.

هنا توقّفت الشّابة عن الكلام، كما لو أنّ أثر هذه التجربة العاطفي قد أنهكها لوهلة. رفعت ظفرها المطلي بطبقة رقيقة إلى زاوية عينها.

ـ بالطبع لم أفهم مقصد المتّهمة ـ قالت ـ وكأنّها تنفي أي إيحاء ضمني بالتّواطؤ.

ـ بالطبع لم تفعلي، قال المحامي. تابعي الحديث رجاء.

في الواقع ـ قالت الشّابة ـ لقد وضعت حقيبتها أرضاً، متاعها، وجلست عليها، عند زاوية المتجر بعيداً عن الطّريق المزدحم؛ لأنه كان أول والنهار، وكانت هي أول عميلة. جلستْ هناك ببساطة وواصلت خطّ تلك الشعارات.

ـ بما فيها الشعار الذي شاهدته؟ عاجلها المحامي.

ـ أول ما خطته، قالت الشّابة.

رفعته أمامها بوقار، ثم تمعّنت فيه، وأدارت الورقة باتّجاهي.

عمّ الصّمت المكان.

تفاجأتُ من قراءة المكتوب، وحتماً لم أفهم معناه.

ـ حسناً، قال المحامي وهو ينتظر.

ـ «إذا كذبتِ على نفسك بشأن ألمك، فسيقتلك أولئك الذين يدّعون أنك تستمتعين به». هذا هو معنى اللافتة؛ بحروف سوداء كبيرة الحجم. قالت الشّابة.

ـ إذا كذبتِ بشأن ألمك فسوف تُقتلين، كرّر المحامي كلامها.

ـ على نفسك، قالت الشّابة. إذا كذبتِ على نفسك. من الواضح أنّ هذا الجزء من الرسالة قد سيطر عليها.

ـ أجل، أجل، قال المحامي. وبعد أن أرتكِ إياه، ماذا فعلتِ؟

ـ أعتقد أنّها رسمت مزيداً منها. وضّحت لي أنها حيث تعيش، أمريكا، يصنع الناس لافتات وأزراراً لكل شيء يريدون قوله، ولا أحد يعتقلهم أبداً. أردتها أن تحذر، قالت الشابة.

ـ لماذا فعلتِ ذلك؟ سألها المحامي بحدّة. نظرتْ إليه الشابة بفزع. انخفضت نبرة صوتها إلى همس وهي تجيب. لا أعرف، أجابته.

لكنها كانت تعرف بلا شك. كل من في القاعة يعرفون. نصف المساجين في أولينكا معتقلون لأنهم عبروا عن امتعاضهم من الحكومة الحالية. هربتْ منّي تنهيدة مسموعة. وحدّق فيّ القضاة.

شعرتُ بالسعادة وأنا أجلس على حقيبة سفري الحمراء الجلدية المصنوعة في الصّين في زاوية المتجر. وأنا أخربش حروفي الكبيرة كما لو أني طفلة. لقد خطر لي على الطائرة أني لن أتمكن أبداً من كتابة كتاب عن حياتي، ولا حتى كتيب، لكنّي أستطيع كتابة شيء ما وهو ما سأفعله. وبعد هبوط الطائرة لم أشاهد إلّا لوحات تدعو الناس لشراء الفانتا والكوكاكولا وسيّارت داتسن والفورد والشّوكولاته والويسكي والسكر والمزيد من

القهوة والشاي والمزيد من الشاي. وفكرت: بلا شك! هذه الأخبار هي موضوع يقرؤه العامة. أنا مجرد امرأة عجوز ومجنونة، لكنّي سأسخر من اللوحات. سأنافسها. وفي اليوم التالي، قبل مغادرة المدينة، ذهبتُ بهمّة ونشاط إلى متجر الورق.

ـ لماذا ألوان العلم؟ تساءل المحامي الآن.

تكمن الإجابة في ملامح وجه الشابة.

لماذا ألوان علمنا حقاً؟

يشيرُ الأحمر إلى دم البشر الذي أريق وهم يقاومون نظام البيض العنصري، أمّا الأصفر فللذّهب والمعادن التي ما تزال أرضنا غنيّة بها، رغم أن البيض نهبوا الجبال في طريقهم، أمّا الأزرق فللبحر الذي يرتمي على شواطئنا، مملوءاً بالثّروات والغرائب في أعماقه، وتشير الزّرقة كذلك إلى السماء، رمزاً لإيمان شعبنا بالقوى الخفية وتفاؤلهم بالمستقبل.

كان هناك جدال محموم عن ألوان هذا العلم؛ جدال اشترك فيه كل شخص. ثم اختار القادة الألوان وأُرسل العلم إلى ألمانيا ليصمم، وينتج بكميات كبيرة ويباع لنا.

شعرت أن دماغي يحاول ابتداع قصة علم بديلة ليستبدل تلك التي قيلت للشعب. لكن لفرط دهشتي، لم يحدث شيء. رأسي، كسائر أعضاء جسدي، ظل ثابتاً على كرسيي. رفضي للحاضرين بخيالي لا يحقق توازناً كنوافذ القاعة العالية. لدي شعور غريب بأنّه وبمجرد انتهاء حياتي، سوف أبدأ الإقامة في الجسد الذي غادرته منذ أمد طويل.

تسلّلت أوليفيا من خلفي أثناء وقوفنا استعداداً للانصراف. دسّت كيساً ورقياً صغيراً في يدي. عندما عدت إلى زنزانتي مرة أخرى فتحت الكيس وأخرجت دمية صغيرة مصنوعة من الطين. مضت سنوات طوال على رؤيتي دمية مثلها، وقد حدث هذا مصادفة ذات صباح في كوخ ميليسّا. حينما وجدتني ألعب بها، ولكمت أذني، وطالبت باسترجاع الشيء الذي

أمسكه ـ تمثال صغير للتسليّة له عورة من الطين ـ كانت مصادفة. وأصغر عمراً من أنْ أستفسر منها عن سبب احتفاظها به في كوخها. ملحوظة من أوليڤيا تقول فيها: هذه نسخة مطابقة. هناك خزّافات يصنعنها هنا. هل تصدقين ذلك!

بصراحة، لم أصدّق.

الفصل السّابع:

إيڤيلين

الطبيب النفسي الذي أرسلني إليه الكهل بعد وفاته كان امرأة أمريكية ـ إفريقية في منتصف العمر اسمها رايا. كان قد التقاها في مؤتمر للأطباء النفسيين في لندن في بداية مسيرتها المهنية. استلطفا بعضهما وبقيا على تواصل منذ ذلك الحين. تضايقتُ منها لأنها لم تكن ميزي. وكانت سوداء وامرأة وكاملة. كانت تشع بقدر كافٍ من السعادة والهدوء مما أغاظني.

وبسببها، رغم ذلك، وجدتني أتحدث ذات يوم عن قائدنا. قائدنا، مثل نيلسون مانديلا وجومو كينياتا وآخرين سبقوه، رحّلوا قسراً وفي النهاية أسرهم وسجنهم نظام البيض. حتى الآن، وبأعجوبة، وبكلمة من أفواهنا سجلنا أصواتنا سرّاً، كنّا قادرين على الحصول على «رسالته المعتادة للشعب» بمعجزة. وعلى عكس نيلسون مانديلا أو جومو كينياتا، لم يحرر قائدنا نفسه، واغتيل في يوم الاستقلال وهو يغادر السجن المشدد الذي سجن فيه، بمعية كتيبة من الحرّاس. يعتقد أن الحراس هم من اغتالوه، رغم عدم إثبات ذلك البتّة.

قتَلَتُه، على أي حال، لم يقدموا أبداً للعدالة، أو حتى يُتعرف عليهم؛ وهكذا، احتفلنا كأولينكيين بما اعتبرناه حريتنا، كان هناك بالفعل حالة تقهقر داخلي من الألم والغضب لن يقضي عليها إلّا تطبيق العدالة على قتلته، والحاجة الماسّة لإظهار ولائنا وحبنا لقائدنا في كل أفعالنا.

ـ لكنكِ غادرت إفريقيا حينها؟ قالت راي، عندما وضحت لها ذلك.

– أجل، أجبتها. غادرها جسدي، لكنّ روحي لم تغادرها. توقفتُ. بدا مستحيلاً أن يفهم شعوري أي شخص. حتماً لن تفهمه هذه السيدة ذات الفستان الأنيق والتي كانت تمشي بكعب في رجليها، وكانت بشرتها الحنطية مشرقة بلون القرفة.

ثمة مرح في صوتها تستخدمه أحياناً في الأوقات غير المناسبة. إنّها تستخدمه الآن.

– بإمكانكِ أن تخبريني، قالت بنظرة مكر.

– لكني كنت عالقة. لقد مات قائدنا من أجلنا. من أجل استقلالنا وحريتنا. ما عساي أن أقول عن حياتي غير المهمة إزاء ذلك الواقع؟ بإمكاني أن أشعر بشعور قاس ومشابه لذلك الذي ألجم حقيقة قتل دورا، لقد أمسى يسدّ حنجرتي. أحسستُ بتكوّن كذبة. كذبة قالت لي أنّ الجلمود ليس حجراً بل سكّر نبات. ثمّ تذكرتُ ميزي الذي قال: أنتم أمل أنفسكم الأخير. هل صدقت كلامه أم لا؟

سعلت لتنقية حنجرتي، وبدأتُ الحديث.

– كان بمثابة يسوع المسيح لنا، هل فهمتِ؟ قلتُ لها بعد صمت طويل. نظرت راي إليّ بترقب.

– إذا مات يسوع المسيح من أجلك، فكيف ستجدين خطأ في أفعاله؟

– يلقي بعض الناس باللائمة عليه لأنه مات من أجلهم، قالت راي. لكننا سنترك رأيهم يمر مرور الكرام. من الأفضل اعتباره مثالياً وكفى، قالت.

– لكن ماذا إذا أمركِ بفعل شيء سيدمركِ؟ شيء خاطئ؟

– مستحيل، قالت راي. كان مثالياً، تذكري ذلك.

ثم ابتسمتُ بمكر، وانتبهت لحيلة من هكذا استنتاج ودعابة فيما قالته. وعلى الرغم من ذلك، لم يقوَ فكّاي على الابتسام.

استأنفتُ الحديث: تلقينا التعليمات من قائدنا، حتى وهو في سجنه. إرشادات جيدة، ومعقولة، وصائبة، تذكرنا بهويّتنا، وقتال المستبد الأبيض

دون هوادة، وحتّى دون أدنى تفكير بالتوقف؛ لأنهم سيكونون حتماً قريبين منا في زمن أبنائنا وأبناء أبنائنا. إن علينا استرداد أرضنا. والمطالبة باسترداد الذرية التي باعها شعبنا للعبودية في أرجاء العالم (شدّد قائدنا على هذه النقطة تحديداً، يكاد يكون الوحيد بين القادة الإفريقيين الذي فعل ذلك)؛ وأنّ علينا الرّجوع إلى عاداتنا وثقافتنا النّقية، والتمسك بتقاليد أجدادنا.

عمّ المكان صمت آخر، بينما كنت ألعب بالإسوارة البلاستيكية التي ارتديتها في معصمي التي لها شكل فيل أسود.

ـ اعتبرناه إلهاً، حقاً ـ قلتُ أخيراً وأنا أتنهّد ـ قاسى الويلات... عرفنا أنّهم عذّبوه، حتّى إنّنا تمكّنا من تخيّل طريقة تعذيبه، من الأجساد المبتورة التي يتسلمها الأهل أحياناً من السجن. عرفنا أنّه أمضى السنوات في سجن انفرادي وأوشك أن يفقد عقله. لكنّه لم ينكسر. ولم ينسنا.

في كل كوخ، حتى عندما كنت صغيرة في العمر، كانت هناك صورة صغيرة له مغلفة بالبلاستيك ومخفية بحذر في مكان خاص بين العوارض الخشبية. كانت عيناه تضحكان! يا لها من عينيْن قويتيْن وحكيمتيْن. وكأنهما تتكلمان. إذا ما استلمنا رسالة منه، أخرجنا صورته، وقرأناها وحفظناها عن ظهر قلب ونحن نحدق في الصورة. أحببناه. آمنّا بكل ما قاله. ظننا يعرف الأفضل... عن كل شيء.

بنى المُبشّرون مخيّماً كبيراً يناهض علامات قبيلة أولينكا التّي في وجوهنا، والتّي أطلقوا عليها اسم ندوب. لكن قائدنا كان يملك العلامات ذاتها، وكان فخره بها ظاهراً للعيان، ولذلك كان من الصعب سماع اعتراضات المُبشّرين، أو الاهتمام بالمُبشّرين ذاتهم. رغم أننا أهديناهم تمتمة صلواتنا واعتنقنا ديانتهم، والتي بدت سهلة، كأم أبناؤها بررة، وراضية عنهم.

كانت راي تميل بجسدها للأمام وأنا أتحدث، أدركت أني غطّيت وجنتيّ بأصابعي، وضممت قدميّ. أنزلت يدي ووضعتهما على طيّات فستاني. فستان بلون أزرق فاتح منقط بدوائر خضراء ضاربة للزرقة، ذكّرتني بالبحر والدّموع.

ـ أمّا بالنسبة للشيء الذي فعلوه بي... أو فيّ – قلتُ لراي –ثم توقفت، لأنها رفعت حاجبيها باستفهام.

ـ التّأهيل...

تابعت النظر بالطريقة المستفهمة ذاتها.

قلتُ لها: التأهيل الأنثوي.. المؤدي للأنوثة.

ـ أوه؟ قالت. لكن بدت كما لو أنها لم تفهم حتى الآن.

ـ الختان، همستُ.

ـ عذراً؟ قالت بنبرة طبيعة لصوت بدا مرتفعاً في الغرفة الهادئة.

شعرتُ كما لو أنّي قد ناولتها لؤلؤة صغيرة الحجم وباهظة الثّمن، لكنّها قضمتها سريعاً وأعلنت أنّها مزيفة.

ـ ما هو هذا الإجراء تحديداً؟ سألتني بحيوية.

تذكرت صفة في النساء الإفريقيات ـ الأمريكيات لم أحبّذها بتاتاً. الفظاظة. الغوص في عمق المسألة حتى لو كانت ستصيب الجميع بأزمة قلبية. يندر امتلاك النّساء السّمراوات في أمريكا لفطنة النّساء الإفريقيات الجميلة. هل منحتهنّ العبودية تلك الفظاظة؟ قفزت لذهني فجأة قصة بطلتها راي: رأيتها بوضوح كما لو أنّها في القرن التّاسع عشر، أو الثامن عشر، أو السابع عشر، أو السادس عشر، أو الخامس عشر... يداها على شفتيها، وثدياها بارزان. إنّها شديدة السّواد، بدرجة سوادي. «أصغ إليّ يا معتوه» تقول، «هل بعتَ طفلي أم لا؟»، يئن «المعتوه»، «لكن اسمعيني يا (لويلا) كان طفلي أنا أيضاً!» وما إن أدار ظهره حتّى التقطت صخرة كبيرة، تماماً كتلك التي في حنجرتي، و... حينها أخرجتُ نفسي من هذا المشهد.

ـ أليس ملفّي بحوزتك؟ سألتها بانزعاج. كنتُ على يقين من أنّ الطبيب الكهل قد أرسله إليها قبل وفاته. ومن ناحية أخرى، لم يطرح هو هذا السّؤال علي. قلتُ له: «خِتان»، وبدا مكتفياً بالإجابة، كما لو أنه عرف تماماً تضمينات الإجابة. تساءَلْتُ الآن: هل فهم معنى الكلمة؟

ـ ملفُّك بحوزتي. قالت راي وهي تطرق الغلاف الرماديّ المنفوخ

بظفر مطلي باللون الفضي متجاهلة موقفي. أجهل هذه الممارسة، وأود أن أتعرف عليها منك. توقفتْ عن الحديث، ونظرت إلى الملف. على سبيل المثال، تساءلت دوماً إذا كان الشيء ذاته يُفعل بكل امرأة، أم إنّ هناك تبايناً؟ أختك... استؤصل بظر دورا أيضاً، لكن هل أُجري لها شيء آخر أيضاً أدّى لنزفها حتى الموت؟

نبرة صوتها الوديعة الآن، ساعدتني على الاسترخاء. تنفستُ بعمقٍ وسعيت باتجاه النّأي اللازم والمألوف عن نفسي. ومع ذلك، لم أبتعد بالمقدار المعتاد.

- مختلف دائماً كما أعتقد - قلتُ لها بشهيق - لأنّ النّساء غير متشابهات. ومع ذلك، الأمر ذاته، لأن أجسادهن متشابهة. لكن لم يكن ذلك دقيقاً. خلال قراءتي اكتشفت أنّ هناك ثلاثة أشكال على الأقل من الختان. بعض الثقافات تطلب استئصال البظر فقط، وبعضها الآخر يصرّ على تشويه العضو التناسلي بأكمله. فرّت مني تنهيدة وأنا أفكر في توضيح هذا.

بانت تجعيدة خفيفة بين عيني راي الكبيرتين واللامعتين.

- أُدرك أنّ الحديث عن هذا صعب عليك - قالت - ربما عليّ عدم الضغط عليكِ.

لكنّي بدأتُ الضغط فعلاً؛ الجزء الأقوى من لساني يسحق تماماً الصوت القصيّ المألوف الذي استخدمته دائماً في سرد هذه الحكاية، صوتٌ يصعب تصديق أنه مرتبط بي.

- كان بعد قدومي لأمريكا - قلتُ لها - أن عرفتُ ما الذي يجب أن يكون هناك في الأسفل.

- هناك في الأسفل؟

- أجل. كان جسدي لغزاً بالنسبة لي، كما كان جسد الأنثى أيضاً، بغض النظر عن وظيفة الثديين، فأغلب النساء يعرفنها. قال قائدنا من السجن يجب علينا الحفاظ على نظافة ونقاء أنفسنا - كما كنّا منذ الأزل - عبر قطع الأجزاء القذرة من أجسادنا. يعلم الجميع أن المرأة ستنمو عورتها غير

النظيفة وستلامس عمّا قريب فخذيها، ستصبح مسترجلة ومستثارة. لن يدخل بها أي رجل لأن انتصابها سيعيق طريقه.

ـ وهل تصدقين هذا؟

ـ آمن به الجميع، رغم أن أحداً لم يشاهده بأم عينيه. ما عاد أحد يقيم في قريتنا على أي حال. ومع ذلك فكبيرات السن، تحديداً، كنّ يتصرفن كما لو أنهنّ جميعاً قد شاهدن هذا الشّر منذ أمد طويل.

ـ لكنّك عرفتِ أنّ هذا لم يحدث لك؟

ـ لكن لربما حدث ـ قلتُ لها ـ حتماً كل صديقاتي اللاتي خُتِنَ، اعتبرن مهبلي غير المختون ممسوخاً. ضحكوا عليّ. استهزأن بي لأن لدي ذيلاً. أظنهن قصدن الشّفريْن الكبيريْن. في نهاية المطاف لم تمتلك أي منهن شفتيْن لمهبلها، ولم تمتلك أيّ منهنّ بظراً، لم يمتلكن أدنى فكرة عن شكل هذه الأشياء، وحكمن عليّ بالغرابة. كان هناك عدد من الفتيات الأخريات اللاتي لم يختن، وكانت المختونات يجرين مبتعدات عنّا، كما لو أنّنا جنيّات. ومع ذلك يضحكن. يضحكن دائماً.

ـ وعند ذلك الوقت، قبل الختان، هل تتذكرين المتعة؟

ـ اعتدت أن أمرّر يدي عندما كنت صغيرة. كان فعلاً محرماً. بعد ذلك، عندما صرت أكبر، وقبل أن نتزوج، اعتدنا أنا وآدم أن نمارس الحب في الحقول، وهو فعل محرم أيضاً. القيام به في الحقول، أعني، ولأننا مارسنا اللعق.

ـ هل جربتِ الشعور بالنشوة؟

ـ دائماً.

ومع ذلك كنتُ على استعداد للتخلي عنها من أجل... عبَست راي وهي غير مصدقة.

أكملتُ الجملة لها: كي يتقبّلني شعب أولينكا كامرأة حقيقية، وليتوقف الاستهزاء. وإلّا سأكون شيئاً أسوأ، بسبب صداقتي مع أسرة آدم وعلاقتي الخاصة به، لم يثق بي البتّة، واعتُبرت خائنة محتملة للوطن. إلى جانب ذلك،

قائدنا، يسوع المسيح خاصتنا، قال إن علينا المحافظة على عاداتنا القديمة وإنّ ما من رجل أولينكي - كان يردد كلمات الفاتح العظيم كينياتا - سيفكر في الزواج من امرأة غير مختونة.

- لكنّ آدم لم يكن أولينكياً، قالت راي وهي محتارة.

تنهدتُ. تلاشت الصخرة، لكن الحديث ذاته بدا فجأة عقيماً. قلتُ لها بحزم إنني لم أفكر في الزواج من آدم وشاهدتُ التّعجب في عينيها. تزوجتُه لأنّه كان مخلصاً، وشهماً، وحميماً. لأنّه جاء من أجلي، ولأنّي اكتشفتُ أن ليس بوسعي محاربة الجرح الذي سببه هذا التقليد لي. كان الحديث شاقاً.

- لكن من...؟ بدأت راي، بذهول أشد.

عثرتُ أخيراً على ابتسامة هادئة في وجهي المتوتّر. ابتسمتُ للشّابة الجاهلة والبريئة التي كنتها. لم تتدحرج الصّخرة من على لساني فقط بل وتدحرجت بسرعة وهدوء مبتعدة عنّي باتّجاه الباب. قلتُ لها: ككل عذراء أولينكيّة، وقعت في هيام العاشق الأمثل الذي كان مقترناً بثلاث زوجات. العاشق الأمثل والأب والأخ الذي أُخذ منّا بوحشيّة، لكنّ عينيه الباسمتيْن في صورته الفوتوغرافية التي تركها لنا، وصوته العذب الفاتن الذي سمعناه من الكاسيت ليلاً. آدم مسكين! لم يتمكن من حمل شمعة إكراماً لقائدنا، يسوع المسيح الحقيقي - بالنّسبة لنا.

آدم

تحدّث الأولينكيّون عن «قائدنا» بالحماسة ذاتها التي تمنينا أن يتحدثوا بها عن «ربّنا». تُسرد الحكايات دائماً عن خصاله الحميدة في أنحاء القرية، «كراماته» وتربصه البطولي بالبيض. بدا كيسوع للقرويين مع اختلاف واحد: تأييده للعنف المستخدم كوسيلة لرفع الاضطهاد عن الأفارقة.

أطلقوا عليه لقب «قائدنا» لأن نظام البيض جرّم نطق اسمه جهاراً. كان هناك رجال يجوبون الأحياء في كل قرية أولينكية وظهورهم تحمل ندوب سهوهم أو تحدّيهم. وعند حديث أولئك الرّجال عن «قائدنا»، يضطرم في أعينهم غضب ودفاع مستميت. في الواقع باتت محادثتهم عن يسوع مرعبة. يسوعنا. قائدنا الأبيض من دعاة السّلام الذي مات بهدوء.

الفصل الثّامن:

ليزيت

عندما بلغ بيير السابعة عشرة من عمره وأتمّ دراسته في (ليسيه)، لم يمنعه شيء من السفر لأمريكا ليكون قرب أبيه. له شعر أجعد وأشقر، وكثير الاهتمام ومراعٍ لشعور الآخرين وحقوقهم. يفترض الناس في فرنسا أنه جزائري. أرسلتُهُ إلى هارفرد. ولم لا؟ كما أقول لرفيقاتي، بما أنّ بيير هو جهة صرفي الوحيدة، فيمكنني أن أكون مبذّرة معه. لكن لسبب أكبر من هذا، ألا وهو لأنه نشأ قسراً من دون والد، وأنا مجبرة على تعويضه.

عندما علمت إيڤيلين بشأن حملي ببيير الصغير، كما اعتدنا أنا وآدم ووالديّ أن ندعوه، هاجت وماجت في غضب واستمرّ انتكاس حالتها واكتئابها الحاقد لسنوات. حاولت قتل نفسها. تحدّثت عن ذبح ابنها. شعرتُ بالشفقة على آدم. لم يكن ينوي الإنجاب مني. أنا من أردتُ طفلاً. وما أردت رجلاً عدا في أوقات معينة. لربما جرفتني ببساطة رياح التّغيير التي كانت تعصف بحيوات النّساء في فرنسا، بفضل نساء طالبن بمنح المرأة حق الاقتراع وكاتبات مثل سيمون دي بوفوار، والتي وضع كتابها الجنس الآخر العالم الذي أعرفه في منظور يسهل عليّ فهمه، والتّحكم به. شعرتُ قبل قراءة كتابها أنّ عدم فهم استعباد النساء العالمي مقدر لي. محكوم علي بالجهل، رغم أنّي أصختُ السمع – منذ طفولتي – إلى خطابات جدّتي بياتريس المستعرة، وهي تناضل لنيل حقوق النساء الفرنسيات. حكم علي أيضاً بشيء من الجنون الذي تشعر به المقموعات المغنّجات دائماً. ويبدو أنّ

لا شفاء له إلا من خلال تنويرهن بخصوص معضلتهن، ويتبعه تدريب نشط لزيادة وعيهن.

إجبارنا على مغادرة الجزائر كان صعباً، فمنزلنا وحدائقنا وخدمنا وصداقاتنا (مع الخدم) هناك. لكن الفرنسيين كانوا يقتلون الجزائريين، روحاً وجسداً، أما الجزائريون فقد سئموا من معاملتهم معاملة أسوأ من الكلاب. فبدؤوا المقاومة. بدا أن هناك موجة متصاعدة من الدّم على الأرض، وحتى رجال الدّين كأبي لم يُستثنوا منه. غادرنا باكين، لأننا اعتبرنا أنفسنا جزائريين. فرنسيون جزائريون، بلا شك. أفراد من الطبقة الحاكمة والعرق المتفوق، والنُّخبة. ومع ذلك فأنا ـ على وجه الخصوص ـ شعرت بانتمائي للأرض، لأنّي ولدت عليها. الشمس الحارقة هي ما أفضله حتى الآن. لم أبتهج إطلاقاً عندما أحاط بي الصّيف الباريسي اللاهب، وقت يحرص الباريسيون الحقيقيون على الوجود في مكان آخر. مكان أبرد. المحيط أو الجبال.

كانت هناك أمكنة، ومطاعم، وملاهٍ ليلية، ومدارس، وأحياء متجاورة لم يسمح للجزائرين بزيارتها. حكاية الاستعمار الأثيرة. ومع ذلك فالنّاس كانوا آية في الجمال، كرماء كما كان الإفريقيون دائماً، وخاصّة خدمنا وأتراب اللّهو. علّمني الأطفال ألعاباً، كما علّموني هم وآباؤهم العربية.

لم أفهم بتاتاً ما حدث، عندما وصل الخدم للعمل بأعين معصوبة، وعدوانيّة، ووجوههم متورّمة حزناً وكمداً. لقد اعتقلت قوّات الأمن الفرنسي شخصاً يحبّونه، وقادوه مخفوراً ليلاً. استجوبوه، ثم سجنوه وعذّبوه، فقتلوه.

ولأني أحبّ ممرضتي، ورفاق اللعب، والخدم، بغضت تلقائياً فرنسا. ثم «عدنا» فجأة إليها، كما قالت الصّحف هنّا. عارضت والديّ ففرنسا تلك كانت مكاناً لن أكون فيه؛ كيف عساي أن «أعود»؟ لم يملك والداي الإجابة كأغلب المقيمين. هم أنفسهم حزنوا حزناً شديداً لما آلت إليه الأمور. غادروا فرنسا في المقام الأول لأن ليس في المجتمع الفرنسي مكان

لهم؛ كل المواقع البارزة قد شُغلت، قال والدي مازحاً. ورغم معاناة والدي في الجزائر كقسيس نصراني محاطٍ بعالم إسلامي، إلّا أنّه شعرَ أنّه قد وسّع محراب روحه، وهو مشروع مثمر. كان نفوذه أكبر في الجزائر، ومكانته مهمّة في المجتمع، أهم من تلك التي حظي بها في فرنسا.

أحبُّ مشاهدة والدي مع بيير الصّغير ـ لقبه ـ كانا متشابهين شكلياً؛ قصيرين، وهزيلين، وجادّين، وبطيئين، وباريسيين نزقيْن، ومدمنيين على القهوة، وحادّي الطّباع على الدّوام. أنا متيّقنة من أنّ أبي يشاهد البراءة عندما يشاهد بيير، أي الفتية الجزائريين غير السياسيين من رعيّته والذين تركهم لقدر مجهول، عالقين بيْن قوات الدّرك الفرنسي الذين يعتبرون العرب سواسية، والماكيز[1]، وجيش التحرير الوطني الجزائري، والمتطرفين المتأسلمين، والذين لم يعتبروا العرب المسيحيين منهم: أي عرباً أصيلين. الفتية الذين أثّرتْ فيهم مواعظ أبي عن يسوع المسيح في كنيسته تأثيراً كبيراً. يسوع الذي عرّفوه بثائر جزائري، لا لأنّ يسوع المسيح في الدين المسيحي بدا جزائرياً فقط، بل لأنّه لوقت طويل كانت هناك عادة استشهاد العرب الجزائريين، والتي كانوا يدركونها جميعاً، كشباب «عرب مجاهدين» بعد شباب «عرب إرهابيين»، صبية صغار لم يتجاوزوا سنوات الطفولة، يواجهون ـ بأيد خاوية أو يحملون الحجارة والسّيوف الصدئة ـ المدرّعات والقنابل اليدويّة الفرنسيّة.

بيير الصّغير، المولود بعد سنوات ، بعد أن استقر والداي من جديد في الحياة الفرنسية، وأقمتُ للمرّة الأولى فيها ـ بات يذكرنا بالتجربة الجزائرية التّي لم يكن لها أثر في فرنسا فجأة، وسلواننا الوحيد. وهذا ينطبق أيضاً على أمّي التي كانت تفكّر برأي النّاس أكثر مما كان يأبه له أبي. لم تعتنق اهتمامات أمها بحقّها بالاستمتاع بالحياة كما ترغب، برفقةٍ هي وحدها من يختارهم، لكنّها أحبّت الجزائر ودفء مشاعر أهلها الذي انطبع في ذهنها. برجوازيتها الفرنسية العرقية ـ «كل العرب لصوص، النّساء لسن أفضل من أزواجهن،

1- المقاومة الفرنسية. المترجمة.

والأطفال يولدون بنزعة تميل للإجرام، إلخ، إلخ، إلخ» ـ حطّمتها معاناة خدمها وأصحابها.

أحبّتْ بيير حبّاً جمّاً. ظننت أن قلبها سيتوقف عندما سافر إلى أمريكا. فهي من اعتبرته نور وجودها المضمحل، ونور ذاكرتها على مرحلة أفلت من حياتها، والتي لم يكن له دور فيها، بل كان كشمس الأصيل في حياتها، يلقي بظلاله على الماضي لينير حقيقة جديدة تبيّنتها الآن. هي من أمسكت بيده خطوة إثر خطوة في كل ميدان فرنسي منذ مولده. في البداية حماية له من نظرات الغرباء المواربة، ثم لازمت بجسارة بيير الصّغير، وتاهت في غمار سعادة الجدّة، ويدها الممسكة بيده البرونزية.

إيڤيلين

أخبرت راي عن نزعتي الأزليّة في الهروب من الواقع إلى عالم الفانتازيا والسّرد القصصي.

وقلتُ له، من دون هذه النّزعة يستحيل عليّ تخمين حدوث أي شيء غير معتاد لي.

ـ ماذا تقصدين؟ سألَتْني.

ـ أقصد، إذا وجدتُ نفسي في غياهب حكاية مستحيلة، تصوّراً أو سرداً، حينها يمكنني التفكير بحدوث شيء مروع لي وهذا ما لا أطيق التّفكير فيه. انتظري لحظة ـ قلتُ لها ـ نظراً لأنها المرة الأولى، هل تظنين أن الرواية تولد بهذه الطريقة؟ وأنّ القصّة مجرد قناع للواقع؟

بدت متحيّرة.

بدأت أثق براي. ذات يوم عندما دخلت لمقابلتها، وجدت وجنتيها متورمتيْن كسنجاب. كانت بشرتها باهتة وبدت في حال سيئ.

ـ ما الأمر؟ سألتها.

عبَسَت. قطعٌ في اللثّة، أجابت بشفتيْن مزمومتيْن.

لاحقاً، عندما تمكنت من الحديث بوضوح أكثر، أخبرتني كيف أزعجها أنّ نوع الألم الذي قاسيته أثناء الختان كان ألماً لا تستطيع تصوره، وعلى ذلك، عندما أخبرها طبيب الأسنان أنها تعاني من عدّة التهابات في الجيوب اللّثوية، وللحصول على فم صحي، فإنّ أطراف لثّتها ستقطع والدّواخل ستقشط، ثم تخاط للأعلى بإحكام، حول جذور أسنانها.

لم أتمكن من منع رعشة تقزز في جسدي.

ـ لكن حتماً سأخدّر، قالت، وهي تتكلم كما لو أن لثتها قد خيطت. وسأصبح أحسن من ذي قبل قطعاً.

أجل، أكّدَت. أكاد لا أتحمل الألم ولا الحديث أيضاً. وبالتأكيد، تستحيل ممارسة الحب مع أي شخص. ضحكت. وكل هذا الألم في فمي فقط!

قلت لها ببرود: حريٌّ بك ألّا تجري العملية. غباء منكِ.

لكنّها ابتسمت فقط، وهي تلوّي قسمات وجهها. لا تغضبي لأنّ اختيار هذا النّوع من الألم يبدو هيّناً، قالت. هذا أفضل ما يمكن عمله في أمريكا. إلى جانب أنه يمنحني فكرة بسيطة عن ألمك. وهو أمر أحتاجه على أي حال.

غضِبتُ لأنّي تأثّرت. أدركت أن رغم مغادرة راي لإفريقيا قبل مئات السّنوات حين غادر أجدادها ودراستها في أفضل مدارس الإنسان الأبيض، إلّا أنّها كانت تمارس سحراً حدسيّاً سرمديّاً، وأساسه إرساء قواعد التعاطف المقدّس، أو ادّعاءه. كيف نشأ المسرح؟ كانت طبيبتي النّفسية مشعوذة، من نوع المشعوذات ذوات الثّآليل اللاتي يقلدهن أطفال أمريكا في عيد الهالوين، لكن روحياً هي من نسل المعالجين القدماء الذين علّموا أطبّاءَنا وكانوا يُعرفون ببراعتهم في التّعاطف. فجأة، في ذلك الرداء الأبيض، أصبحت راي شخصاً مألوفاً، شخصاً يمكن أن أرتبط به.

شكرتُ ميزي في قلبي، لأنّي شعرتُ أنها ستكون شجاعة وسترافقني في تجارب لم يجرؤ أحد على خوضها. وهذا ما حدث.

بيير

كان عصر يوم ماطر من شهر ديسمبر، فجلسنا قرب النّار. جلست أمّي، واستلقيت على الأريكة أمامها. في صباح ذلك اليوم كانت قد سمحت لي بالنّوم متأخراً، وألا أذهب إلى المدرسة، وجلبت لي الهدايا ونثرتها حول سريري. في كل عام منذ مولدي تحيك لي كنزة صوفية. في كل عام شاهدت القطعة المنسوجة تكبر حجماً بين إبرتي الحياكة اللامعتيْن، وفي كل عام كانت النتيجة تذهلني. في هذا العام ـ وككل عام ـ تفوّقت على نفسها. غلّفتني الكنزة الجديدة بلونها الذّهبي والبني، عند منتصف صدري، فوق قلبي بقليل، كانت هناك صورة رأس روح بأخضر يانع، زاهٍ.

كنت أقرأ كتاباً للكاتب لانغستون هيوز[1]، الخطيب المُفوّه الذي يخفي حزنه في كتاباته اللّامبالية. لقد التهمت عدة روايات لجيمس بالدوين[2] ـ عبقري حرب العصابات المثلية والذي التقيته مرّة عندما جاء ليلقي خطاباً في المدرسة ـ ومجلّدين من المقالات لريتشارد رايت[3] ـ المتبصّر المعذّب والعاشق المغرم بفرنسا. هؤلاء الرجال، «أعمام» من جانب أبي، سيرشدوني

1- ـ لانغستون هيوز (1902 ـ 1967م) شاعر وروائي ومسرحي وناشط اجتماعي أمريكي، وهو أول من قدّم ما عُرف بـ «شعر الجاز»، ومن مؤسسي «حركة نهضة هارلم». المترجمة.

2- ـ جيمس بالدوين (1924 ـ 1987م) روائي أميركي صدّر العديد من الروايات والمقالات، وكان ناشطاً في «حركة الحقوق المدنية» وأصبح ناطقاً باسمها. المترجمة.

3- ـ ريتشارد رايت (1908 ـ 1960م) روائي وشاعر أميركي عُرفت رواياته بتركيزها على العنصرية، ويعتقد النقاد بأن أدبه ساهم في التأثير على العلاقة بين الأعراق في أمريكا. المترجمة.

أثناء رحلتي إلى أمريكا. نظرتُ لأمي، متوقعاً رؤيتها تستكمل القراءة، أو تحدق متأملة النّار، لكن بدلاً عن ذلك وجدتُ عينيّها البنيّين مصوّبتيْن نحوي.

قالت: مجرد أفكار. قد مضى ستة عشر عاماً على ولادتك. لا أصدق هذا.

ـ هل هو زمن طويل؟ قلتُ وأنا أبتسم لها.

شعرها البني غزاه الشيّب أكثر مما أتذكر، ووجهها بدا نحيلاً أكثر من المعتاد، وأكثر شحوباً. تنهدتُ برضا طفل وحيد ومدلّل، وتأملت حسن طالعي. شعرتُ بأقصى درجات الأمان الممكنة مع أمي. كما اعتادت أن تقول، نشترك في إيقاع نبض القلب أنا وهي منذ ولادتي. لا يهم أي شخص آخر لم يكن في حياتي، فأمي موجودة دائماً: تقرأ، وتحيك، وتجهّز لدروسها في «ليسيه». كان شعوري بالاستعداد للانفصال عنها حقيقة، لكن برفق، كما تسقط الثمرة من الشجرة. سنة إضافية من الدراسة، في باريس، بعدها سأغادر.

ـ إذا ذهبتَ إلى أمريكا، قالت، الأمر الذي ما خططت له طيلة حياتي، وأمضيتَ الوقت مع والدك، فهناك شيء يجب أن تعرفه.

ـ ما هو؟ تساءلتُ.

ـ مسألة صغيرة، ربما. لكنه لن يتذكرها والدك، بينما أتذكرها أنا.

ـ يا للغموض، أجبتها.

ـ ليست في غاية الغموض! قالت. كل المسألة أني عرفت من تجربتي مع والدك أنّ الرجال يرفضون تذكر الأشياء التي لم تحدث لهم.

مملوءاً بكلمات بالدوين، وهيوز، ورايت الشّغوفة، والتي لامست شغاف قلبي كما لو أنّي حفرتها فيه، ملتُ بجسدي لأعارضها. وضعتْ أمي يدها على فمي وغطّت شفتي.

منذ زمن بعيد، جاء أبي لرؤيتي مرة واحدة في الخريف وأخرى في الرّبيع، أمضى أسبوعين في كلا الزيارتين. لم يأت أبداً عند ولادتي، لأنّ قدومه حينها

كان يغضب زوجته فعلياً. في كل مرة كان يريني صوراً لابنه الآخر، بيني، وصورة واحدة على الأقل لزوجته إيڤيلين، أو تاشي كما يناديها أحياناً. كان بيني يكبرني بثلاثة أعوام، بشرته حنطية حريرية جميلة، وابتسامته خجولة. أتساءل متى شاهدت صورة عمّا إذا كان يحبني. إذا كان بإمكاننا أن نكون على الأقل رفيقيْن. أخبرني والدي مرّة أن بيني لم يكن «سريعاً» مثلي. أسعدني هذا كثيراً، رغم أن كلماتي عجزت عن سؤاله ماذا يقصد بـ «سريع».

بدأت أمي تخبرني كيف التقت بوالدي، قبل عقود في إفريقيا. كنت قد سمعتُ القصّة من قبل. أومأت برأسي بلا مبالاة وهي تتحدث عن السّاعات التّي أمضتها مع والدي في كوخ تورابي القديم، حين كان ينتظر موته. وسرعان ما أدركتُ أنّ أمي بدأت تضيف تفاصيل الراشدين على القصة.

قالت: يجب أن تفهم أن هناك سبباً أجبر تورابي الكهل على العيش وحيداً، معزولاً عن القرية، ولماذا لم يأت أحد من أبناء القرية للاعتناء به. لم يستمتع والدك حتماً برعايته أيضاً، جدّك صموئيل كلفه بالاعتناء بتورابي.

عدّلت أمي جلستها وفتحت رجليها المتصالبتين، وضغطت براحة يدها على جانبي كرسيّها كي تتمدد وتحوّل نظرها إلى النار، والتي ستحتاج تأجيجاً عمّا قريب.

كان تورابي في شبابه متعدد الزّوجات. مات عدد منهن خلال المخاض، ومن العدوى. ماتت إحداهن من لسعة حيّة. على أي حال، عرفتُ هذا من آدم، الذي أحبّ أن يستذكر زوجات الكهل الذي فضّل أن يلبهن بـ «نِعم سلبية». وأخيراً تزوج تورابي من شابة هربت منه، ولم يتمكن من استعادتها. كان مشهوراً بتعقّب واستعادة زوجاته الهاربات من قبل. أما هذه فقد انتحرت غرقاً في ماء لم يصل حتى لركبتيها، مفضّلة عدم العودة إليه.

ذهبتْ لوالديها وسألتهما كيف يتوقعان تحملها للتعذيب: لقد فضّها بسكّين الصّيد ليلة الزفاف، ولم يمنحها فرصة التّماثل للشفاء. أبغضته بغضاً شديداً. لم يحبها أهلها. أمر والدها والدتها أن تذكرها بواجبها، فقالت لها أمها

إن مكانها في بيت تورابي، طالما أنها زوجته.. وضّحت الشابة لها أنها تنزف. أخبرتها أمها أنّ النّزيف سيتوقف: الأم ذاتها نزفت لمدة عام عندما جُرحت. وأنها بكت وهربت. لم تتمكن من تجاوز منطقة الرّجال حتى أعادوها إلى قبيلتها. استسلمت، وصبرت. تقف أمها الآن في ظل زوجها، رجل تمقته، تنتظر موته، ولكن في الوقت الحالي، تتوق لرؤية أحفادها من ابنتها. لا يوجد شيء في العالم لتقبيله باستثناء الأطفال، قالت الأم وهي تبتعد عن دموع ابنتها.

طُرد تورابي خارج القرية لأنه فقد التّحكم بزوجته، وهذا أمر شرير في ذلك المجتمع لأنه يهدد نسيج الحياة. على الأقل الحياة التي يعرفها القرويّون. مات منبوذاً، وقذراً في الأطمار. وأُجبرت أسرة الفتاة على مغادرة القرية، وسُحلت جثة الفتاة نهاراً وتُركت للتعفن، أطعم جسدها للنّسور والقوارض.

ـ الآن، قالت أمي وهي تنهض لتضع حطباً في الموقد، يشير والدك كثيراً لحقيقة أنّه هو وأنا قد خضنا حوارات «حيّة» في كوخ تورابي، عندما كان يغسل الكهل على مضض، لكنه لا يتذكر موضوعات أحاديثنا.

قالت أمي، إنها عن شابة في الجزائر تعمل لدينا، والتي كادت أن تلقى مصير زوجة تورابي. كانت عن كيفية إدراكي للرابط بين البتر والاستعباد والذي يتجذّر في الهيمنة على المرأة في العالم. كان اسمها عائشة، وقد هربت إلينا ليلاً وهي تصرخ بعد أن شاهدت الأدوات الصغيرة والحادة التي رتبتها والدتها المغلوب على أمرها تحت ملاءة على كرسي منخفض إلى جانب سرير الزوجية.

ارتعشت والدتي فجأة، كما لو كانت تشاهد مشهداً مرعباً. إنه في كل الأفلام التي ترهب النساء، قالت، إلا إنهن مقنّعات فقط. الرجل الذي يدخل. الرجل حامل السكين. حسناً وها قد دخل. تنهدت. لكن اللاتي كن محتكمات على حزام عفتهن المصنوع من الجلد، أو الحرير أو الألماس، أو الخوف وليس من لحمنا... قلقنا. نحن المتفرجات المثاليات، مأخوذات بمعرفتنا اللاإرادية عما يفعل الرجال بنا ـ بتواطؤ مع أمهاتنا.

قالت بعد صمت طويل: هذه الحكاية مع عائشة التي أعيدت لأسرتها، ليضربوها عقاباً لها على هربها - نجهل في الواقع ما حل بها - هي سبب رفضي للزواج، رغم عدم وجود أدوات التّعذيب تلك قرب السرير.

- والماركيز دوساد؟ سألتُها.

- لحسن الحظ هو رجل واحد فقط ولا يعيش في هذا القرن. قالت ضاحكةً.

- لحسن الحظ ليس إلى جانب سريري.

- ربما، أجبتها. لكن قسوته اتجاه النساء راسخة في ذاكرة الفرنسيين الجمعية؟ مثل بهجة رابليه، وفطنة موليير؟

تمتمت قائلة: ربما، ثمّ أمعنت النّظر في النّار.

الفصل التّاسع:

إيفيلين

لم تعذّبني النفس اللوامة لفتحي رسائل ليزيت الموجّهة إلى آدم. رسائل احتوت أحياناً على نسخ من رسائل تلقتها من عمّها ميزي تتعلق بحالتي، أو حتى نسخا من رسائل آدم نفسه أحياناً. كأنّها بحاجة لتحفيز ذاكرته عن أمر أو آخر. غالباً ما تكون هناك صفحة منسوخة من مفكرتها تبدو فيها مرتاحة، وهادئة، ومستقلة على نحو لا أتخيل نفسي فيه. لديها الجرأة لتخاطبني برسالة، ولتبدو هنا كما لو أنها تتلمس طريقها في الضّباب. دستُ على كلّ الرّسائل، قرأت بتروٍ وبشكل منظّم تلك الرسائل التي كتبتها إلى آدم، وكان يتركها مفتوحة في آخر جارور في مكتبه، وقد احتفظت بنسخة من مفتاحه منذ زمن طويل. علمت من إحدى رسائلها عن ابنهما بيير، سيأتي أمريكا.

أعلمني أنّه سيذهب إلى اجتماع للمسيحيين التقدميين. سافر آدم لأسبوع إلى بوسطن ليلتقي بيير، وليساعده على التأقلم مع حياة كامبردج وهارفرد الجديدتيْن. كان الصبي بعيداً مسافة قارة، ولذلك لم أكترث، ظل في كامبريدج لثلاثة أعوام.

عرفتُ من رسائلها عن مرضها. شُخّصت بالتّوتر بسبب نشاطها السّياسي: كانت ناشطة مناهضة لمحطات الطاقة النّووية الفرنسية، والتي كما كتبت، أشبه ببثور خطيرة في نقاوة الريف، لاحقاً شُخّصت بالقرحة، ثم بفتق، وأخيراً بسرطان المعدة. توسّلت آدم أن يسمح لبيير أن يعيش

معه ويدرس في بيركلي بعد موتها. ويبدو أنّ آدم قد وافق على ذلك، أما أنا فرضتُ مناقشة الموضوع.

كان هذا في فترة عفت فيها الطعام وبدوت منهكة كخيال المآتة؛ ملابسي مهلهلة عليّ، وما فارقني السواد. في الأسبوع الذي سبق، عرّفني آدم على مغنٍ: «آه، آدم وإيڤيلين. يا للجمال!» فصفعته.

بدأت أشعر بغضب عارم يتصاعد من أعماقي، كلما تواصلت مع العالم الخارجي. وحتى داخل البيت فإنني عادة ولأتفه سبب أو وبلا سبب، لكمتُ أذني ابني بيني. جعلته يشتكي ويخنع وينظر إليّ بعينين وجلتين يسودهما الحب والاستغراب. سرّني ذلك أحببت إحساسي بالرّاحة.

كنتُ أنظر إلى الشارع حين وصلت سيارة الأجرة. صفراء فاقعة اللون تشبه صندوقاً، من تلك السيّارات التي نشاهدها في أفلام التحريك. وكما هي كل سيارات الأجرة في أمريكا. لمحت شعر بيير المصفّف قبل أن يخرج منها، عندما مال إلى الأمام ليدفع للسائق أجرته. كان نحيفاً وقصيراً، وكأنّه لا يزال طفلاً. شاهدتُهما يتحادثان كرفيقيْن قديميْن، ثمّ ذهبا لصندوق السيّارة الخلفي لاستخراج الحقائب.

ظلا يتحادثان، لم يلحظا الشّبح الأسود الذي يطفو قربهما: أولاً عند الباب، ثمّ الشرفة، فالعتبات، منكباً على كومة حجارة كبيرة بدأت أجمعها منذ علمي بمولد بيير. حجارة ضخمة مستطيلة من جانب الطريق، وأخرى مسطّحة ثقيلة من ضفّة النّهر، وحجارة حادّة ومثلّمة من الحقول.

وبعد أنْ شكر بيير السّائق واستدار باتجاه المنزل، شاهدني، وابتسم. أصابه حجر مسنّن ضخم، رمادي كالحزن، فوق أسنانه. سال الدّم من أنفه. بدأت أرمي الحجارة كما لو كنتُ الربة كالي[1] أملك اثني عشر ذراعاً، أو أنّ ذراعيّ قد تضاعف عددهما وصرتُ مقلاعاً أو طاحونة هواء.

أمطرته وسيارة الأجرة بالحجارة، والتي بدأت تتحرّك لكنّها توقفت

1- إلهة في الميثيولوجيا الهندية وتصوّر كامرأة متعددة الأيادي. المترجمة.

بقوّة عندما أدرك السّائق أنّ بيير كان يتعرض للهجوم وقد وقع على ركبتيه. لم أهمد، بل اقتربتُ منه أكثر، بيد مملوءة بالحجارة. بدأ بيير يتحدث بفرنسية متلعثمة، مما أغضبني. رميت الحجارة على الأرض كي أسدّ أذني بيدي. خلال هذا الفاصل، ركض السائق باتجاه بيير، جرّه بعيداً عني.

عندما اختفت سيارة الأجرة في آخر الشّارع، بدأتُ أضحك. بتعجّلهم الجبان نسوا أمتعة بيير. حقيبة سفر بنيّة مزعجة، أثقل من أن أرفعها أو أحملها. لن أحملها. تقدّمت نحوها، طويت ذراعي وزعقت كغراب، وركلتها إلى الشارع.

الفصل العاشر:

إيڤيلين

كانت رحلة الحافلة من محطة أومبري طويلة، الطريق مليئة بالمطبات، والغبار في كل مكان. كلما قطعنا خمسة وعشرين كيلومتراً تقريباً نتوقف إلى جانب الطريق. لم يكن هناك ما يشبهها في أمريكا، إنه درب مريع. حفر نتنة الرائحة في الأرض وقام أحد الرجال التقدميين بتثبيت لوح بالمسامير، وقد غمرت الألواح الأخرى بالبول، وطبع عليها آثار أقدام.

لم أتوقّع أن تكون ميليسّا على قيد الحياة قبل أسبوع. إلّا أنها كانت كذلك، وذلك حسب عدد من مجلة «نيوزويك» صادر قبل عام طالعته في غرفة الانتظار في ويفرلي، لم تكن حيّة فقط بل كانت تعتبر بطلة قوميّة. لقد كرّمتها حكومة أولينكا على دورها إبّان حروب التّحرير، بوصفها ممرضة تفانت في واجبها تماماً مثل فلورنس نايتنغل[1]، ولمناصرتها الثّابتة للعادات القديمة وتقاليد دولة أولينكا. لم يُذكر كيف طبّقت العادات. كُرّمت، وحصلت على لقب «فارسة»، كما ذكرت المجلّة. نقلوها من كوخها المعتم، حيث استلقت محتضرة على حصير قذر، وأحضرت إلى عرزال فسيح في ضواحي القرية القريبة، حيث ستدخل المستشفى، إذا استدعت الحاجة.

بعد أن أحضرت من كوخها المعتم إلى ضوء الشمس في منزلها الجديد - فيه ماء جار ومرحاض داخلي، كلاهما معجزة بالنسبة لميليسّا المحظوظة - حدث تغيير ملحوظ. اختفت علائم الاحتضار عن ميليسّا، توقفت عن

1- فلورنس نايتنغل (1820 - 1910م) بريطانية تعتبر مؤسسة التّمريض الحديث. المترجمة.

التّقدم في العمر، وبدأت تُزهر من جديد. «عادت شابة» كما ذكر المقال. خصصت لها ممرضة محليّة متخصصة في الشيخوخة، وأوكل لخدمتها طباخ وبستانيّ يلبيا حاجياتها. ميليسّا التي لم تمش لما يقرب العام، بدأت تمشي من جديد، تتوكأ على عكاز أعطاه إياها الرئيس بنفسه، وتستمتع بالتّرنح في حديقتها. أحبّت تناول الطّعام، وأنهكت طبّاخها في صنع أطباق خاصّة من مرق العجل، والأرز بالزبيب وحلوى الكاكاو الذي كانت تحبه كثيراً. كانت لديها بحق شجرة مانجا، أظهرتها الصّورة وهي تواظب على الجلوس تحتها مبتهجة، وعندما أينع المحصول، قطفته بنفسها.

ابتسمت ميليسّا ابتسامة عريضة في الصّورة، ولمع سن جديد لها، وحتى شعرها فقد طال ونما، وكانت هالة بيضاء حول رأسها البني الدّاكن.

ورغم ذلك كان هناك شيء مشؤوم، بخصوص سحنتها، لكن لعلّي كنت الوحيدة التي لاحظته. فرغم أنّ فمها كان باسماً، وبالتّالي وجنتيها الغائرتين وأنفها الطويل، وجبينها المجعّد ورقبتها النّحيلة، إلّا أنّ عينيها الصّغيرتين لم تكونا كذلك. بالنّظر إليهما، فرحت فجأة، أدركت أنهما لم تبتسما أبداً.

كيف سلّمتُ جسدي للمجنونة؟

تاشي- إيڤيلين

علمٌ فوق منزلها: أحمر، وأصفر، وأزرق، ألوانٌ زاهية مقارنة بسماء الظّهيرة الزّرقاء. لم أكن زائرتها الوحيدة؛ كانت هناك سيّارات مركونة في مساحة ركن السيّارات التّابعة للبريد، حُجبت بإجادة عن المنزل بشجرة جهنّمية زهرية اللون، وحافلة سياحة متوقفة عند الطّريق. لم يسمح للمسافرين بالنّزول منها، بل كانوا مشغولين بالتقاط صور للكوخ من نوافذ الحافلة. ركنت سيارتي المستأجرة بعيداً عن البيت، وعندما صعدتُ العتبات الحمراء إلى الرّواق ونظرتُ خلفي، فإذا بها اختفت. عدم رؤية السيارة بدا صحيحاً، وبعد لحظة من التّأني، اختبرت من جديد رحابة الريف: طرتُ مباشرة، كما الطير، من منزلي إلى منزلها، محققة ذلك بتوجيه من التفكير: رحلة سحرية.

التقيت امرأة شابّة لم يذكرها مقال مجلة «نيوزويك»: نحيلة، لها بشرة سمراء وناعمة وعينان لامعتان، بحيوية زهرة قُطفت تواً. أوضحتُ لها أنّي أعرف ميليسّا طوال حياتي، وأنّها هي من جاء بي إلى هذا العالم، وقد كانت صديقة مقرّبة من أمّي وفي الواقع فهي أم القرية جميعاً. أوضحتُ لها أنّي جئتها من أمريكا، حيث أقيم الآن، رغم أنّي أولينكية المولد، وأرغبُ في قضاء الوقت مع ميليسّا، ربما بعد أن يغادر ضيوفها.

ـ ما اسمكِ؟ سألتني بلطف.

أخبريها تاشي، ابنة كاثرين، لا، بل ابنة نافا، التي سافرت لأمريكا مع ابن المُبشّر. استدارت. وبحكم عادتي نظرت للأسفل إلى قدميها. وبينما همّت بالابتعاد، شاهدتُ أنّها تمشي مشية العذارى الأولينكيات «المحتشمة».

وفي غضون دقيقة خرجت كل ضيفات ميليسّا، كما لو أنّ عصى بعثرتهن. عاينّني عندما مررن بجانبي. لعلّهن اعتقدنّ أنّي من أعيان البلد. وأثناء تشغيلهنّ لسيّاراتهن، وتمزيقهن الهدوء إرباً، عادت الشّابة.

ـ هلّا تفضلتِ بالدّخول؟ قالت وهي تبتسم.

ـ ما اسمكِ؟ سألتها

ـ مارثا، أجابَتني.

ـ واسمكِ؟

ـ مَباتي، قالت بعينين برّاقتين.

سألتها: لماذا يأتي النّاس إلى هنا يا مباتي؟

فاجأها السّؤال. تُعتبر الأم ميليسّا مَعْلماً قوميّاً، أجابت. وتُعرف كبطلة في كل أحزاب الحكومة، بما في ذلك جبهة التّحرير الوطنية. إنّها مشهورة، قالت وهي تهز كتفيها وتنظر إليّ بحيرة كما لو كنتُ أجهل ذلك.

ـ لم أعرف هذا، قلتُ لها. لقد قرأتُ «نيوزويك».

ـ آه، «نيوزويك»، قالت.

ـ لكن عمّاذا يتحدّثون؟

ـ عن بناتهن والتقاليد والأيام الخوالي. صمتت برهة. النّساء هنّ من يزرنها عادة. لعلكِ لاحظتِ هذا من السّيدات اللاتي غادرن تواً. نساء من عمر معيّن. نساء مع فتياتهن. نساء مذعورات غالباً. إنّها تُطمئنهن.

ـ هل تفعل؟ تساءلت.

ـ أجل. إنّها تعرف الكثير وتقول أشياء غريبة. كما تعرفين، ماما ليسّا[1] تدّعي وجود زمن لم تعرف فيه النّساء الطمث! تقول، لربما كانت هناك قطرة دم واحدة، واحدة فقط! تقول إنّ هذا كان قبل سبيهن.

لم أتمكن من التّحكم بضحكي، ومباتي تتكلم.

ـ كل ما تفعله هو الجلوس والتّحدث، تتحكم بالمجلس. لا يهم ما

1- سيلاحظ القارئ من الآن فصاعداً تغيراً طفيفاً في نطق اسم القابلة ميليسّا ليصبح ماما ليسّا، وكأنّها أمٌ روحية للجميع: المترجمة.

تقوله. لعلها تناهز المئة عام، والجميع يرغب في أن يكونوا في حضرتها قبل أن تفارق الحياة. تداعى ـ كما تعلمين ـ الكثير: الاستقلالُ يفتك بنا فتكاً شديداً كما فعل الاستعمار. ومع ذلك فإنه ليس استقلالاً حقيقياً، أضافت وهي تتنهد.

أمسكت مباتي بيدي وقادتني إلى الأمام بهدوء، وهي تتحدث بترو. إنّها صلتنا بالماضي، خاصّة بالنّسبة لنا نحن النّساء، قالت. إنّها المرأة الوحيدة التي كرّمتها الحكومة بهذه الطريقة. إنها أيقونة.

هل يُعقل هذا ـ قلتُ لنفسي ومباتي تقودني إلى رواق ميليسّا اللامع وتدفعني نحو غرفتها حيث يوجد سرير أبيض ثلجيّ ـ إنّ والدتي عاشت وماتت، ميزي عاش ومات، الفرنسيّة ليزيت عاشت ومات، أنا بذاتي عشتُ ومتّ ـ داخل وخارج ويفرلي، داخل وخارج عقلي ـ مرات عدّة. حروبٌ خضناها وخسرناها؛ وكيف لا وكل حرب هي ضد العالم وكل حرب ضده ستُخسر، لكن ها هي هنا مستلقية، متكئة كملكة على سريرها الثّلجيّ، والنّافذة المفتوحة إلى جانبها تطل على شيء من الحديقة، ومن بعيد، فوق الحديقة ثمة جبل أزرق. إنّها مشرقة، وكلّ من جبينها، وأنفها، وشفتيها، وأسنانها، ووجنتيها يبتسم لي. ملتُ لأقبل جبينها، قاومت شفتاي شعرها الأبيض. أمسكتُ بيدها التي لها ملمس الرّيش النّاعم، ووقفتُ للحظة أنظر إليها. جسدها كلّه يرحّب ويتبسم، باستثناء عينيها. إنّهما وجلتان وحذرتان. ظننت أن أعين النّاس تسوء حالما يهرمون. لكن هذا لم يحدث، إنّهما صافيتان. لعينيها نظرة فاحصة. كذلك عيناي. ما ذلك الحزن، هناك في أعماقهما؟ أهو توجسٌ؟ أهو خوفٌ؟

الفصل الحادي عشر:

إيفيلين

مباتي واقفة. إنها لا تضع المكياج أو المجوهرات وشعرها قصير وطبيعي. فيها بساطة تزيد الغرفة كلها بهاء. عندما تتحدث فإن هدوء شخصيتها الدّافئ يسكن الغرفة، حتى لو كان صوت مراوح السّقف أكثر حدّة من ذي قبل. إنّها الابنة التي كان يجب أن أحظى بها. ربما كان ممكناً، ألمْ أسقطها جراء الخوف.

طفوت أمامها فوق قرب المروحة، كما يعسوب هائل. عندما وصلت إليها، أمسكتُ يدها الناعمة. اتّسعت عيناها من الدهشة والبهجة. قلتُ لها وأنا أبتسم: تعالي، أنا أمك. إذا أمسكتِ بيدي أمام كل هؤلاء الناس والقضاة، كل رجال الشرطة هؤلاء والحرّاس وحضور الجلسة الفضوليين، ستكتشفين أن بإمكان كلينا الطيران. حقاً؟ تساءَلت، ثمّ وضعَت يدها في يدي. ربتُّ بخفّة وفارقت مقعدها وطارت إلى جانبي فوق منصة الشهود، فوق طاولتي المحاميّيْن والقاعة المزدحمة... خارج الغرفة إلى السماء. نحن أخف من الهواء، أخف من الشّوك. أم وابنتها تتجهان نحو الشمس.

ـ لا، لم أشتبه بشيء، قالت، عندما عدتُ لجسدي، وجلستُ على المقعد القاسي إلى جانب المحامي.

كانتا رفيقتيْن قديمتين. ماما ليسّا عرَفتها. سعدت برؤيتها في الواقع، لم أشاهدها بهذا الحماس من قبل. احتاجتا التحدث على انفراد. أصرّت ماما ليسا.

ـ إذن فلم تنفذي واجبك. لم تلازمي سرير ماما ليسا. وغادرتِ المنزل حتّى، قال المحامي وهو يوجّه أصابع الاتّهام نحوها.

أفلتت ابنتي يدها. لكني نظرت إلى الأعلى بسرعة. كانت تلك الالتماعة الصحية والمشاغبة في عينيها.

أدارت وجهها للقضاة وتكلمت بحزم. حضرتكم. ابتعدتُ عنها.

تجاهلوا جميعاً التماعة الحياة هذه. هذه الأصالة البسيطة. هذا الجمال.

ـ اعتراض، قال المحامي الآخر. (لم أعد أفرّق بين المحاميّين. الطريقة الوحيدة التّي أعرف بها المحامي الخاص بي هي من خلال ملاحظة من منهما يجلس إلى جانبي، ومن رائحة عطره المنتشرة في أمريكا). سلوك الدّفاع الشّيطاني ليس شيئاً يمكن للشاهدة معرفته مسبقاً.

ـ هل اشتبهتِ بشيء؟ استثير المحامي.

تبدو الطفلة متألمة. أشعر بالأسف عليها. كيف لهم أن يتخيّلوا أنه خطأها؟ أنا من أشرت لماتي لتنصرف. أنا من قلتُ لماما ليسّا، لتأخذ الفتاة استراحة. جاءت ابنتك الأخرى من أمريكا لرعايتكِ فقط! بما أنّ العودة للاعتناء بالعجائز كانت خصيصة راسخة في العادات القديمة، كيف لها أن ترفض؟

أوه ـ قالت ماما ليسّا ـ إنها سعادة غامرة. عارمة! أن أرى ابنة نافا، هنا، إلى جانب سريري تماماً. أوه، سأموت حتماً!

وجدتُ أن عبارتها هذه غريبة.

ـ كيف بدت المتّهمة لك؟ سألها محامي الدفاع.

صمت طويل. أمٌّ رؤوم، أجابت ماتي.

تفاجأ الشّاب. ماذا؟ بدا أن عينيه تقولان، هذه الشيطانة، أمٌّ رؤوم!

ـ أجل، تابعت ماتي بصوت جازم. لقد فقدت أُمي وأنا رضيعة، ومع ذلك لم أصدق موتها، وعندما شاهدت السيّدة جونسون عند الباب...

ليس لذكريات الطفولة صلة بتاتاً بهذه القضية، قال المحامي مقاطعاً

حديثها. أيّما كائن بشري كان ليسمح لها بالاسترسال في الإجابة، حتى لو شعر المرء أنه غير قادر إطلاقاً على أن يسألها: كيف ماتت أمك؟ إنّه سؤال محرم في أولينكا. لا يسأل المرء خوفاً من الإجابة.

لجأت مباتي إلى الصّمت، لكنها حدّقت في وجهي ولاحظت بنظرتي. رأت أنّها لم تكرهني.

إيفيلين

قلبي مع آدم، متضخم فيزيائياً، عاجز عاطفياً، وثمة عرق ينسل على شفته العليا. يصعب تصديق أنّ هذا الكهل ذي الشعر واللحية الرماديتين هو زوجي، وصديقي العزيز لما يزيد عن خمسين عاماً. وكان حبيبي.

يبدو مستنكراً، لمجرد حضوره في القاعة المزدحمة. إنه يحدق بتعاسة إلى أعلى، إلى مراوح السّقف البطيئة، المزيّتة حديثاً، أو إلى خارج النافذة، منتظراً الطعون والردود على أسئلة المحامين.

أتذكر عندما كان جسده رشيقاً ومتوقداً، وكيف اعتدت تقبيله بروية من حلمة لحلمة على امتداد صدره الجميل.

قال إنّي امرأة معذّبة. امرأة دُمّرت حياتها كلها من خلال تطبيق الطقوس على جسدي والذي لم أكن مستعدة لفهمه.

ما إن تفوّه بكلمة «طقوس» عمّ القاعة هرجٌ ومرج. أصوات ذكورية، وأخرى نسائية، تدعو آدم لالتزام الصّمت. اخرس، اخرس، أيّها الأمريكي الذّليل! علا صوت: ذاك الذي تعلنه على الملأ هو شأنٌ خاص بنا! لا يمكننا مناقشة هذا الموضوع المحظور علناً.

بدا آدم مرهقاً. على وشك البكاء.

الأم ليسّا كانت ثروة وطنية! تمتم صوتٌ: لقد قتلت زوجتك البطلة. إنها جدة نسلنا!

شعرت بالغضب، صاحت الأصوات، التفّت عليّ وغلّفتني، لكن بدلاً من السّماح لنفسي بالاختناق، تماهيت مع الصّياح وارتفعت كما لو كنت ريحاً. أعصف بريح عاتية على القاعة. المبنى على وشك الانهيار.

يأمر القضاة بالانضباط، مرة تلو المرة. الآخرون غاضبون وأنا ساكنة، استعدت هدوئي في نهاية المطاف.

أفكر كيف لم ألتقِ بليزيت البتّة. كيف حاولت التّعرف عليّ وزيارتي. كتبت إليّ الرّسائل. حاولتْ إثارة اهتمامي بالطّبخ الفرنسي، أرسلتْ لي كتب الطّبخ والوصفات. أرسلت قصاصات إليّ عن الفطر البريّ وأماكن وجوده. (لا جدوى من هذا، اعتدت أن أقول لنفسي، وأنا أحدّق في المرآة وأخرج لساني). أرسلتْ ابنها إليّ. كيف رفضته. كيف شعرتُ أنّها تعرفني جيداً.

ثم فجأة، وبعد صراع طويل ومرير، ماتت. تركتْ لبيير عينيْها، فعيناه لا تشبهان عيني آدم، إنّهما عينا العارفة تلك، بنظرتها التقييميّة؛ من أقصى مهجع الطلبة في هارفرد، شاهد أعماقي، وحتى أحلامي.

عزيزتي المدام جونسون، كتب لي. أتمنى ألّا تمزقي هذه الرّسالة قبل قراءتها. (حينئذ قطّعتُها نصفين حتماً، ثمّ قرّبت الجزأين من بعضهما لمتابعة القراءة). سمعتُ طيلة حياتي عن البرج الذي يفزعك في أحلامك، وقد شغل هذا البرج أمي مذ سمعت عنه، وقرأت الكثير من الكتب بُغية اكتشاف دلالته. شاركتها هذا البحث، مذ كنت صبياً صغيراً. كابوسكِ القهري حلّق في تفكيري دائماً، ذكره أبي مرّة واحدة لأمّي، لكنّه قيل بوضوح لم يتحرر منه منزلنا.

فكلانا فهم أن هذا الكابوس، وهذا الجاثوم، وأسرَكَ في برج معتم، كان ما أبعد والدي عنّي.

يا سيّدتي، أنا أعرف الآن ماهيّة البرج، وتأويله ربما.

فكما تعلمين، أقيم الآن في بيركلي، وهي ليست ببعيدة عن منزلك.

هلّا توقفتِ عن قذف الحجارة؟

هلّا التقينا؟

بيير جونسون

آدم

لا يرغبون في سماع ما يعانيه أطفالهم. جعلوا الحديث عن المعاناة ذاتها محظوراً. كعلامات الطمث المرئية. علامات على سلامة عقل المرأة. علامات على ضعف وتذبذب الرجال. عندما يذكرون كلمة «محظور» أحاول تعقّب أعينهم. أيقصدون أنّه شيء «مقدّس» ولذلك لا يتكلمون عنه علناً خوفاً من تعكير غموضه، أم يقصدون أنّ قدسيته يجب ألّا تنتهك، خوفاً من إفساد الشّباب؟ أم يقولون ببساطة إنّه لا يمكنهم ولن يصغوا لما يقال عن عادة مقبولة هم جزء لا يتجزأ منها، ومستمرة منذ الأزل؟

علّمني والدي أنْ أطرح أنواعاً من الأسئلة، يا للحسرة. كان ليقول، آدم ما هو السؤال الجوهري الذي يجب أن يسأله المرء عن العالم؟ كنتُ لأفكّر وأفترض الكثير من الإجابات، لكن الإجابة كانت ذاتها دائماً: ما سبب بكاء الطفلة؟ كان هناك طفل يبكي حتى لدى الكهل تورابي، والذي كانت قذارته ومرضه مصدر قرف. شاهدته قبل موته. لم يحب أغلب زوجاته، في الواقع، حتى إنه لم يكرههن، كان يعتبرهن خادماته بكل معنى الكلمة. بالكاد كان يتذكر أسماءهن. لكنّه اعتقد أنّه يحب الشّابة التي هربت، الزّوجة التّي أغرقت نفسها. لسوء الحظ، بالنّسبة له، «الحب» والمعاشرة الإجبارية المتكررة هما وجهان لعملة واحدة. ولذلك استلقى أخيراً، مجروحاً ومخضبّاً بدموعه، مفجوعاً بحياته لكن دون أن يعرف غيرها. قال لي: النّساء غير قابلات للإتلاف في الأسفل – تفهم قصدي – بفحش أكثر من مرّة، عيناه أضيئتا بذكرى انغماسه في الشّهوات والعنف. إنّهن أشبه بالجلد؛ كلّما دبغته، صار أنعم.

إذا استؤصل عضو كل رجل في هذه القاعة، ماذا سيحدث بعدها؟ هل سيفهمون أكثر أن حالهم يشبه حالة جميع النّساء اللاتي في هذه القاعة؟ رغم جلوسهن هنا، فإنهن يعانين من تشنّج لحم أجسادهن الذي تعرض للتلاعب بحجمه وأعيد تشكيله؟ إيڤيلين ليست الوحيدة. فهناك أيضاً تلك الشابة من متجر الأوراق، وبائعة البرتقال العجوز، ونساء الطّبقة البرجوازية في فساتينهن الأنيقة اللاتي يستخدمن المراوح اليدوية ومسحوقاً على أنوفهن لمقاومة الرطوبة، والمسكينات المحشورات عند الباب الخلفي، ومباتي المرأة والابنة الجميلة.

من المحزن التّفكير في أنّ أحداً ممن في القاعة لم يسمعهن البتّة. أرى كل واحدة منهن كالفتيات الصغيرات التي كان والدي يأبه بشأنهن، تصرخ هلعاً داخلياً فتصم هي أذنيها عنه.

ـ نحن نعي ـ قال المدعي ـ أنّ السيدة جونسون ورغم أنّها أولينكية، قد عاشت في أمريكا لسنوات عديدة وعديدة، وأنّ الحياة الأمريكية عذابٌ للسود.

أحدّق فيه صراحة.

ـ أليس هذا صحيحاً يا سيّد جونسون، أنّ في الولايات المتّحدة ـ بأصحابها ذوي البشرة البيضاء المُأزمين ـ أودعت زوجتك المصح النّفسي مرات عدّة؟

قلتُ له: زوجتي متألمة. مجروحة. محطّمة. وليست مجنونة.

ضحكت إيڤيلين. أمالت رأسها للخلف في تحدٍّ صريح. قهقهة قصيرة. حادّة. كنباح كلب. تجاوزَت الألم. مجنونة قطعاً. حُرّة على نحو غريب.

إيڤيلين- تاشي

سيأخذون جميعاً أمريكا منّي لو استطاعوا، لكن لن أدعهم يفعلون ذلك. إذا اضطررت، فسوف أوقفهم عند حدودهم. تماماً كما أوقفتُ إيمي. كيف توقِف شخصاً عند حدّه؟ من خلال تكذيبه.

آدم

تزورني امرأة تلو الأخرى لتشتكي من خيانة زوجها، أو حبيبها، ومن عدم إخلاصه لها، قالت طبيبة تاشي الجديدة راي وقت استشارتها. النتيجة هي أنّ تسع حالات من أصل عشر، هي بسبب برود في المرأة. أهو ختان نفسي؟ تساءلت بجدّية.

أخبرته أنني أجهل السّبب. لم يخطر ببالي التّفكير في أن معاناة تاشي هي بسبب استمرار ألمها. اعتبرتُ أنّ ما ألمّ بها هو نتيجة تصرف فردي بحت.

الفصل الثّاني عشر:

تاشي- إيڤيلين

«ظهر الرب آما[1]، أخذ قطعة طين، ضغطها بيده وقذفها بعيداً عنه، كما فعل بالنّجوم. تبعثر الصلصال وسقط في الشّمال، وهو أعلى العالم، ومن هناك تمدد للجنوب، وهو أسفل العالم، رغم أنّ كلّ العمليّة كانت أفقية. الأرض مسطّحة، لكن الشّمال ظلّ فوق، انبسط شرقاً وغرباً كعضويْن منفصليْن مثل جنين في الرّحم. إنه جسد، أي خلقٌ تتفرع أعضاؤه من منتصفه. هذا الجسد، مستلق، ووجهه للأعلى، مستقيم من الشمال إلى الجنوب، وهو أنثوي. عضوها التّناسلي كثيبُ نمل، وبظره تلة أرضات[2]. آما، ولأنه وحيد وراغب في التّواصل مع هذه المخلوقة، اقترب منها. كان هذا أول خرق لنظام الكون....

عند اقتراب آما ارتفع التّل، أعاق المرور وأظهر استرجاله. كان قوياً كعضو غريب، والتواصل لم يتحقّق. لكن آما قوي. اجتثّ التّل، وأتى المخلوقة المستأصلة. لكن قُدّر لهذه الحادثة الأصلية التأثير على مجرى الأمور إلى الأبد...».

وبينما يقرأ بيير أدرسُ وجهه بحثاً عن ملامح آدم، ملامح ليزيت. إنه يبدو شخصاً مختلطاً تماماً، وبذلك، إنسان جديد. اختفى منه «الأسود»،

1- الرّب في ديانة قبيلة دوغون في غرب إفريقي. المترجمة.

2- الأرضة حشرة بيضاء مُصفرَّة تشبه النملة، تظهر في الربيع وتعيش في مستعمرات كبيرة، وتأكل الخشب والحبوب ونحوهما. المترجمة.

كذلك هو الأبيض. عيناه داكنتان، مشبّعتان بالبنّي، وجبينه عال وأسمر، وأنفه عريض، مفلطح قليلاً. أخبرني أنه يحب الرّجال كما يحب النّساء، وهذا أمر طبيعي برأيه بما أنّه نتاج جنسيْن وعرقيْن مختلفيْن. لا أحد يستغرب أنّه ثنائي العرق. لماذا يجب أنْ يتعجّبوا من كونه منجذباً للجنسين؟ هذا تفسير لم أسمع به ولا يمكن استيعابه، يبدو في غاية المنطقية لعقلي. أخوه يجلس مقابله خلال قراءته، مأخوذاً به. لقد سرقا عدّة ساعات ليكونا معاً، يتجوّلان في حرم بيركلي الجامعي وشوارع المدينة، سعيديْن في أنْ يجد كل منهما صديقه في الآخر.

توقّف الآن عن القراءة، فجأة، ونظر إليّ. هذه الفقرة من كتاب كتبه متخصّص فرنسي في الأنثروبولوجي اسمه مارسيل غريول[1] يقول ـ أدار الكتاب حتّى أتمكن من رؤية غلافه البرتقالي وقراءة عنوانه: **حوارات مع أوغوتيميلي**-: أنا تحت تأثير متعة مخدر جديد، وخفيف. كما لو أنّي دخّنت الماريجوانا. في الحقيقة لم أتمكن من فهم الفقرة التي قرأها بيير، ولا كيف أنّه يجلس في غرفة معيشتي ويقرأ لي من هذا الكتاب الغريب. هل توقّفت عن كرهه؟ حدّقت ببيني الذي بدا في منتهى السّعادة، ثم للأسفل إلى حضني. عيناي تحرقاني بالقدر ذاته عندما أكون مُخدّرة، الإغماض يجلب الرّاحة. بيير يقرأ كما لو كنتُ أصغي إليه: «تواصل آما جسدياً مع زوجته الأرضية، وهذه المرّة دون تشويه من أي نوع، استئصال العضو المُهين أزال سبب الاضطراب السّابق». شعرتُ به وقد توقّف، يقلّب الصّفحات، وينظر إليّ. رفعتُ عيني ورمقته بنظرة بشوشة. أنا منتبهة، قلتُ له. في الواقع، كلّي آذان صاغية. ومع ذلك، بينما واصل بيير القراءة، وكأنّ الكلمات التّي تلامس أذني، تتقافز من فمه كمطّاط هندي. هذا منظر صرف انتباهي، فنظرت إلى بيني لأشاهد إذا ما لاحظه. لم يلحظه. إنه يجلس مسروراً، وحاسوبه المحمول على حضنه. سألتُ نفسي: من علّمه الكتابة، إذا كان لا يستطيع تذكّر شيء؟

1- مارسيل غريول (1898 – 1956م) باحث أنثربولجي، عرف ببحوثه ودارساته الخاصة بشعب دوغون في غرب إفريقيا. المترجمة.

«رسمَت الرّوحُ خطّيْن على الأرض، فوق بعضهما، أحدهما ذكر والآخر أنثى. مدّ الرّجل ظلّه على الظّلّيْن اللذين يمثّلانه، وامتلكهما. والشيء ذاته حدث مع المرأة. وهكذا تقرر أن كل بشر فيه روحان من جنسيْن مختلفيْن، أو أصلين يستجيبان لشخصين متباينيْن. روح الأنثى في الرّجل استقرّت في القُلفة، وروح الذّكر في الأنثى استقرّت في البظر».

حينئذ رفعت ناظري. تابع بيير القراءة: «لم تكن حياة الرجل قادرة على دعم كلا الرّوحيْن: كل شخص سيتّحد في الجنس الذي يبدو أكثر ملاءمة له». ولذلك ـ قال بيير، وهو يغلق الكتاب ويضع أصبعه بين صفحاته ـ يختن الرّجل تخليصاً له من أنوثته، وتختن المرأة لتخليصها من ذكورتها. بتعبير آخر، قال وهو يميل للأمام على كرسيّه، وجد الرّجال منذ زمن سحيق أنّ من الضّروري حبس النّاس في تصنيف جنسهم الواضح بشكل دائم، رغم معرفتهم أن من النّاس من هو مزدوج فطرياً.

ـ إلى متى يمتد هذا الزمن السحيق؟ تساءلت وتركيزي على شيء من الضبابية.

حرّك بيير كتفيه استهجاناً، وأعجبني كيف أنّي شاهدتُ جسد أمّه في تموج كتفيه.

ـ حتّى كليوباترا خُتِنت، قال. نفرتيتي كذلك. لكنّ بعض النّاس يحبون أن الأشخاص الوارد ذكرهم في هذا الكتاب، شعب الدّوغون، هم من حضارة أقدم من حضارتهم، وأنّ هذه الحضارة قد انتشرت باتّجاه الشّمال، من منتصف إفريقيا للأعلى نحو مصر القديمة ودول البحر المتوسّط. توقّف عن الحديث، وفكّر. قالت أمّي دائماً إنّ بتر شيء من العورة، والذي يسبق كل الأديان الأساسية، كان نوعاً من تقييد الأقدام.

بعد أنْ غادر المنزل لمرافقة بيني إلى مباراة كرة سلّة، بقيتُ مع الكتاب، وقد ترك إشارات عليه، وبدا تعليقه الأخير فيه لغزاً. أشاهدُ فجأة ليزيت بكل وضوح. إنّها تجلسُ قرب نافذة وأمامها مكتب. إنّها تفكر فيّ وهي تتصفح كتاباً بنّياً ضخماً أمامها، وحاجباها الأبيضان معقودان. إنّها تحدّق

في رسمة قدم امرأة صينية صغيرة ومتفسّخة، وتقرأُ التّدوينة التي تذكر أنّ رائحة العفن كانت مثيرة للرجل، الذي عشق ضمّ القدمين الصّغيرتين بين يديه الكبيرتين، ورفعهما إلى أنفه وهو يستعد لاغتصابها، حينها لا تتمكن من الفرار من قبضته. عجزها عن الحركة يرضي شهوته. ألم عرجها الخفيف يمنعها من التّمتع بالمطاردة بإثارة لا تشوبها شائبة. سُحرت والدته بحركة كتفيه غير الأمريكيتين والغريبتيْن، تماماً كما سُحرت عندما فتحتُ الكتاب بكلماته. أتساءل: لماذا يموت الأشخاص الذي يتعمّقون في التّفكير فينا؟

وقعت عيناي على فقرة لم يقرأها بيير: «ثم تواصل الرّجل جسدياً مع المرأة، والتي أنجبت له لاحقاً أول طفليْن من أطفاله الثّمانية، والذين أصبحوا أجداد شعب الدّوغون. في لحظة الولادة كان ألم المخاض متمركزاً في بظر المرأة الذي استأصلته يدٌ خفيّة، ثم تركته، وتحوّل إلى نوع من أنواع العقارب. الجراب والإبرة يمثّلان العضو: كان السّم هو الماء والدّم هو الألم».

أعدتُ قراءة الفقرة، تتوقّف قراءتي دائماً عند كلمتي «يدٌ خفيّة». حتى الرّب هجر المرأة منذ وقت طويل، قلتُ لنفسي، وقف إلى جانبها فترة كافية فقط ليهدي الرجل إلى فعل البتر. وماذا لو لم يكن الألم هو ما شعَرتْ به في لحظة الولادة؟ على أي حال، الألم كان ما شعرتُ أنا به عند المخاض، رغم عدم وجود بظر ليكون الألم مضاعفاً.

تابعتُ القراءة: «الرّوح المزدوجة خطرة؛ يجب أنْ يكون الرّجل ذكراً، والمرأة أنثى. الختان والاستئصال هما... العلاج».

لكن من له التّفكير في هذا لوقت طويل؟ أغلقتُ الكتاب، ومشيت على غير هدى في الغرفة، وارتميتُ بتثاقل على الأريكة، ونسيت نفسي حينما بدأ عرض برنامج «هيهاو» على التلفاز.

آدم

يحزنني أن بيير لم يتزوج قط، وأنه يبدو راضياً بمواصلة مسيرته المهنية كمتخصص في الأنثروبولوجيا وأنّه يقضي كثيراً من وقته مع بيني. هذا الصّغير (بالنّسبة لرجل) ذو الشعر المجعّد والملوّن هو ابني! ذهولي وهو يقترب من منتصف عمره هو الذهول ذاته عندما كان في الثانية من عمره. ورغم أن صوته أغلظ وأجش من صوتي، فهو شخص يمتلك صوتاً ملوناً، ما زال يبدو أحياناً جراء لهجته، صوتاً غريباً. أشاهد أمّه ليزيت فيه، والتي احتاجت وقتاً طويلاً لتموت، مصرة بشجاعة على الحفاظ على كرامتها حتى آخر رمق. عنقها الفرنسية السميكة تلاشت أثناء معاناتها. توسّلت فقط، في النهاية، طلباً للمورفين والمزيد والمزيد منه. مشاهدتها في بيير تجعل ذكرى آخر زياراتي لها ممكنة الاحتمال، وتنعش أوقاتاً أسعد في أيامنا الخوالي معاً.

يضحك بيير من اهتمامي، ويمتنع بلطف عن التّعقيب بصوت عال أنّ زواجي كان جحيماً.

ـ تزوجتُ وظيفتي، قال لي.

ـ لكن وظيفتك لا تنجب الأطفال، قلتُ مناقضاً رأيه.

ابتسم، وقال بالفرنسية: بلى، وظيفتي ستنجب الأبناء! بنين وبنات سيفهمون على الأقل سبب خوفهم. كيف للطفلة أن تكون طفلة وهي خائفة؟

لم أجادله. منذ اللحظة التي سمع فيها بيير في طفولته عن قصة برج تاشي المظلم وفزعها منه، لم يفارق تفكيره. كلّما تعلّم شيئاً ـ مهما كان بسيطاً

أو في أي سياق أو مع أي شخص ـ استحضر معضلتها. الحوارات التي نخوضها كراشدين تتضمن بشكل متوقع بعض المعلومات التي خزّنها لتصبح جزءاً من لغز تاشي.

الفتاة الوحيدة التي أحبّها على سبيل المثال كانت طالبة في بيركلي. ذهب معها لركوب الخيل عدة مرّات.

كانت تركب من دون سرج، دائماً، قال لي، عندما جلسنا على صخرة في الحديقة عند منتصف الظهيرة. كانت تشعر بالاستثارة عند ركوب الخيل.

سألته هل أنت متأكد؟

ـ متأكد، أجابني. فقدت الوعي، وعندما سألتها عن السبب، أسرّت لي به.

أفحمني أنّ متعة أي امرأة يمكن العثور عليها بسهولة، تأتأتُ بلا مبالاة.

ـ الكلمة التي تبحث عنها ـ قال بيير ـ هي عشوائية. لمزيد من الدّقة. المرأة التي «لا تُكبح» جنسيّاً حسب القاموس، هي «فاسقة، وعشوائية، وساقطة» اصطلاحاً. لكن ما السبب؟ في حين إنّ الرجل غير المكبوح جنسياً هو رجل بكل بساطة.

قلتُ: حسناً، وهل كانت ساقطة؟

نقل بيير ثقله إلى الصّخرة وتجّهم في وجه السّماء. قال بنبرة باحث فاجأتني وأبهجتني من شخص بحجم طفل: الآن يمكننا فهم شيء عن مطلب النّاس في ثقافات البتر، بأنّ يكون فرج المرأة ضيّقاً. إجباراً إن استدعت الحاجة. إذا فكرتَ في الفسق، والانحلال على أنّه اختبار المتعة بسهولة.

كيف حدث هذا؟ سألته. لصديقتك، أعني.

لقد ترعرعت في كنف والدين وثنيّين، يعبدان الأرض، على جزيرة صغيرة في مكان ما في هاواي. بإمكانها الشعور بالإثارة تقريباً في كل شيء تفعله. قالت إنّ في منزلها أشجاراً مفضّلة أحبّت أن تحتك بها. بإمكانها أن تستثار على صخرة ناعمة ودافئة، كهذه التّي نجلس عليها. بإمكانها أن

تستلقي على الأرض ذاتها إذا كانت مرتفعة قليلاً. ورغم ذلك ـ قال بيير ـ لن تكون إطلاقاً مع رجل. أخبرها والداها منذ وقت مبكّر أن ذلك ليس ضرورياً البتّة، ما لم ترغب في إنجاب الأطفال.

ـ سألته: ومعك؟

أجابني قائلاً: أخشى أنّ ممارسة الحب معها قد قُمِع تأثيرها، لا بل قد تلاشى. مهما حاولت، كان من الصعب الاقتراب منها بوضع المهيمن. عند ممارسة الحب معها، تصبح أقل فأقل بللاً. اكفهرّ وجهه للحظة، ثم عبس. لقد سافرتْ إلى الهند. أظنّها هجرتني من أجل فيل تعلّمت ركوبه، أو ربما من أجل قطرة دافئة وبطيئة من شلال الماء، وهذا ما تحبّه في جزيرة هاواي.

لطالما اعتقدتُ أنّ تشويه الرّجال لأعضاء النّساء التّناسلية هو كي يمنعوا التواصل بين النّساء.

ـ وما زلت أعتقد أن في ذلك شيئاً من الصّحة، قال بيير. لكن هناك كذلك تجربتي مع كوين آن.

ـ كوين آن؟ هل سُمّيت صديقتك بذلك تيمناً بالملكة آن نزينغا، المحاربة الإفريقية؟

ـ لا، أجابني. تيمناً بزهرة الملكة آن[1].

لاحقاً وعند تنزهنا الطويل، توقفنا عند أنبوب طلباً للماء، ما زال بيير يفكّر. النّساء فقط من سيمارسن الحب مع كل شيء؟ تساءل. الرّجال أيضاً، في النّهاية، لديهم أعضاء تناسلية خارجية. لكن هل يسعى الرّجال إلى التّوحد مع الأرض عبر ممارسة الجنس معها؟

ـ أتقصد أنّ كوين آن لم تكن تمارس العادة السرية؟

ـ قالت إنها لم تفعل ذلك البتّة، عدا مع نفسها. وحتى في تلك الحالة كانت تمارس الحب. تمارس الجنس. كل ما هنالك أنّ شريكها لم يكن بشرياً.

ـ هل اكتشفت ازدواجيتك مع كوين آن؟ سألت.

1- زهرة تشبه قماش الدّانتيل واسمها العلمي Daucus Carota. المترجمة.

ـ أجل، أجابني. لم أكن أنجذب إلى النّساء حتى التقيت بها. كنتُ أحسب أنّ النّساء جميعاً يعانين في الجنس. وجدت الطّمأنينة في التّعرف عليها. أدركتُ أنّ حتّى الانجذاب للجنسين، الذي شعرت به دائماً ولم أجربه، كان لا يزال مثليّة. أقصد، هنا كان شخص لا يهتم بنوع الآخر. هل تذكر بان؟ سأل ضاحكاً. حسناً، كوين آن كانت جدة بان!

صورة بان ـ الرّب الإغريقي ـ يعزف نايه بسعادة في الغابة. رأسه البشري على جسد يتكون من حيوانات مختلفة. من الواضح أنّ أسلافه مرتبطون جنسياً بكل شيء. وسبقه ارتباط أسلاف كوين آن بالأرض نفسها. أنا أكبر سنّاً من استخدام كلمات مثل «واو». لكن «واو» هي ما أسمعني أقولها لنفسي. مما جعل بيير يضحك من جديد.

تمسّك الآن بخيوط أفكاره. قال بحزن: قدرة النّساء هذه على التّمتع بطرق عديدة اختُلقت بطريقة منحرفة. شاهدت أفلاماً يُجبرن فيها على الممارسة مع القردة والكلاب والبنادق والأسلحة. خضروات بأشكال غريبة وفواكه. عصي المكانس وقناني الكولا. لكن هذا اغتصاب. الرّجل يغار من متعة المرأة ـ قال بيير بعد صمت ـ لأنّها لا تحتاجه لتحقيقها. وعندما يقطع عضوها الخارجي، ويَترك لها القليل منه، فتحة غير مرنة تستقبل منها المتعة، يتأكد من أن عضوه فقط هو الذي بإمكانه الوصول لأجزائها الداخلية فيعطيها ما تشتهيه. لكن التّوق للهجوم عليها هو ما يستحق العناء فقط، حينها ستكون معركة حرفياً، وتسيل دماء الطرفين.

ـ آه ـ قلتُ ـ معركة الجنسيْن الأثيرة!

أجاب: تماماً.

ـ حسناً، قلتُ له. بعض الرّجال يهتمون بالحيوانات أو يستخدمون النساء كما لو أنهن غلمان.

ـ إذا كنت تلتفت لآلام الآخرين، قال متجهماً، أو حتى تعرفه بنفسك، وبغض النّظر عن مهانة فرض نفسك على امرأة لحمها حاجز أمامك، فما عساك أن تفعل؟

الفصل الثّالث عشر:

إيڤيلين

شاهدت لسنوات برنامجاً تلفزيونياً اسمه «رفرسايد» كان عن مستشفى لأمراض الطّب النّفسي التّي ذكرتني بويفرلي. عندما عرّفتني راي على إيمي ماكسويل، ومثّلت عن قُرب دور المرأة التّي تدّعي القوّة، الأم الحنون الرؤوم وطبيبة المستشفى المتقاعدة، شعرتُ بالرّاحة فوراً معها. كانت هرمة بشعر رمادي مسرح على شكل ذيل الحصان، وفم به أسنان ناصعة البياض وصحية يعلوها عبوس دائم. نظرتْ إليّ بتفحص عبر نظارتها النّصف فضيّة ومدّت يدها.

جلستْ كعادتها على كرسيّها البني المحمر، نظرة اندهاش على وجهها. لم أفهم سبب وجودنا أنا وإيمي معاً. مازحت نفسي قائلة: أيمكن أن تكون هذه المرأة حقيبة متأخرة من ميزي وفيها الصلصال؟

ـ تعلّمتُ شيئاً من إيمي حديثاً أظنّه سيثير اهتمامكِ ـ قالت راي وهي تميل إلى الأمام ـ ساد صمتٌ طويل، لاحظت خلاله وجه إيمي الملطّخ بالمسحوق الوردي وشذى أزهار البرتقال. بدأت الحديث أخيراً. تحدّثت عن ابنها جوش ـ كلمة تعني عِمامة باللغة الأولينكية ـ وكيف كان مريض راي للعديد من السّنوات. ذكرت اسمه بهمس، بتردد، كما لو أنّها غير واثقة من حقها في ذلك. لقد عمل كراقص باليه في مؤسسة كبرى عندما كان في العشرينيات من عمره، واجه بعد ذلك وقتاً عصيباً للحفاظ على مستواه. ولأنّه تقدّم في العمر، واكتأب، قتل نفسه وهو في ريعان الثلاثينيات.

عانى من الاكتئاب منذ ولادته تقريباً، قالت إيمي. تابعت حديثها، بنظرة احتقار من راي إلي، وتقريباً منذ مولده أخذته إلى الطبيب النفسي. ولأنّه جندي قليل الشأن، ذهب دون اعتراض ليفحص قلبه ورأسه على يد ثلة من الأطباء النّفسيين في مجهود للتناغم مع بهجتي المتواصلة: نور الشّمس كان ساطعاً لدرجة أنّه جعل والده، الرجل العادي، مليئاً بالعواطف الجيّاشة. من دون اهتمام بما ألمّ بي، فإنني تخطيته، قالت إيمي، كما علّمتني أمّي أن أفعل، وكما فعلت هي بنفسها. كانت حسناء جنوبيّة من طراز سكارلت أوهارا[1] فقيرة معظم حياتها، ثم أصبحت من أثرى الثّريّات لأنّها تزوجت والدي، الذي كان يملك جزءاً كبيراً من قلب المدينة التّجاري.

حينئذ توقفتْ عن الحديث ونظرتْ خارج النّافذة. كان شهر فبراير، كانت أشجار الأكاسيا مزهرة في الشارع. التزمنا الصّمت نحن الثّلاثة، مستمتعات باللون الأصفر الجميل المتباين مع اللون الأخضر اليانع. ازددت حيرة أكثر من ذي قبل. نظرت إلى راي جانبياً، لكنها كانت جالسة على كرسيّها، عيناها متحفّزتان وهي تحدّق في وجه إيمي. أدركت أنها ليست المرّة الأولى التي تسمع فيها هذه القصّة.

تشابكت أصابع يدي إيمي ببعضها وتنحنحت. كما كان عمرها؟ تساءلتُ. سبع وخمسون؟ ثمانون؟ أكبر؟ بدت لائقة صحياً، مهما كان عمرها. فقط عندما انتهى به المطاف هنا مع راي، بدأ يرواده إحساس بأن الاكتئاب الذي صاحبه دائماً كان يخصّني.

ـ ماذا تقصدين؟ سألتُها.

قالت إيمي وهي تتنهد: أقصد أنني اعتدت على لمس نفسي وأنا صغيرة... هناك. كانت عادة تسببت بالإهانة لأمّي؛ في الثالثة من عمري، كانت تربط يديّ كلّ ليلة قبل أن تضعني في سريري. وفي الرّابعة من عمري، وضعت الصّلصة الحارقة على أصابعي. وفي السّادسة طلبت من طبيب أسرتنا ختاني.

1- بطلة رواية «ذهب مع الريح». المترجمة.

ـ هل نيوأورلينز في أمريكا؟ سألتُها بارتياب، فهذا كل ما تمكنتُ من قوله.

ـ أجل، أجابت إيمي، أؤكد لكِ أنها المدينة ذاتها. وأجل، أنا أخبرك أنّ الطّفلة البيضاء الثّرية حتى وهي في أمريكا لا يمكنها لمس نفسها ـ حتى إذا شاهدها الآخرون ـ فلن تنعم بالأمان.. المسألة تختلف الآن بلا شك. وحتى في ذلك الحين لا تتصرف كل والدة كما فعلت أمّي. لكن لم أكن الوحيدة التي تعرضت لذلك وأنا أكيدة من ذلك.

ـ لا أصدّقكِ، قلتُ وأنا أتهيأ للرّحيل. لأنّي شاهدتُ أوراق «أمريكا الخاصة بي» الخضراء اليانعة تتساقطُ محروقة على الأرض. أنهارها المتلألئة ملوّثة بالدّماء.

قامت راي أيضاً ووضعت يدها على ذراعي. كنتُ غاضبة منها، وأعرف أن عيني تعبّران عن ذلك. كيف لها أنّ تُعرّضني لهكذا أكاذيب!

ـ تمهّلي، قالت.

جلستُ.

ابتسمت إيمي ابتسامة خجولة، رغماً عن فمها العابس المتجهّم. تحسبين أنّكِ الإفريقية الوحيدة التي جاءت إلى أمريكا، أليس كذلك؟ سألَتني.

ـ ظننت ذلك في الواقع. بدت النّساء الأمريكيات السّوداوات مختلفات بالنّسبة لي عن نساء أولينكا، يندر أن أفكر في جدّات ـ جدّات ـ جدات أمهاتهن الإفريقيات.

ـ جاءت نساء إفريقيات كثيرات إلى هنا، قالت إيمي. كن سبايا. كثير منهم بعن في سوق النّخاسة لأنهنّ رفضن الختان، لكن كثيراً منهنّ بعن لسوق النّخاسة مختونات وأعضائهن التناسلية مشوهة أيضاً. تلك النّساء المخيطات أذهلن الأطباء الأمريكيين الذين توافدوا على مزادات الرّقيق لفحصهن، وهنّ واقفات عاريات بلا سلاح في المزاد. تعلّموا إجراء «العمليّة» على مُستعبدات أخريات. قاموا بهذا باسم العلم. وجدوا في

هذا فائدة للبيض... ضحكت إيمي فجأة. كتبوا في ملاحظاتهم الطّبية أنّهم عثروا أخيراً على علاج لشبق النّساء البيضاوات.

ـ حسناً، على أحد فعل ذلك، قال راي بوجه جاد. وضحكت كلتاهما.

لم أستطع التّحمل. حدّقتُ في إيمي.

ـ فُعل ذلك في جدّة طاهيتنا، قالت. عملية جداً، في شبابها لم تتمكن من الإنجاب، فتبنّت غليدي، رفيقة طفولة أمّي وخادمتها والتي استؤصل بظرها، رغم أن عضوها لم يشوّه مثل والدتها. كانت غليدي حسنة المعشر، ليست أَمَة قانونياً، لكنها مستعبدة روحياً لأقصى درجة. هي فقط لم تمتلك الشجاعة ولا حتى ذاتها. «سموّ الرّوح» كما أسمته أمي، وكانت هذه طريقة أمّي في ضرب الأمثال لتخبرني بما يجب أن أكون.

شاهدتُ مع راي والدّموع تنهمر على وجنتيْنا أنّهنّ احتفظن بتجهمهن منذ ذلك الحين. في سنتي الأولى في أمريكا، أخذني كل من سام وأوليفيا إلى السّيرك وكان هناك مهرج ينتحب رغم وجود ابتسامة بيضاء عريضة مرسومة على وجهه. هكذا بدا وجه إيمي.

ـ كنتُ في غاية التّحكم طوال حياتي ـ قالت ـ من خلال يد أمّي اللّامرئية. وكانت لامرئية ـ بكت، وهي تقبض بقوّة على مسند الذّراع في كرسيّها ـ لأنّي أنسى!

ـ كنتِ طفلة، قالت راي بحزم. طفلة قيل لها إنّ لوزتي حلقها قد استُؤصلتا. طفلة لم تعرف أنّ شيئاً كالذي فعلته والدتكِ فيكِ ممكن. طفلة تجهل ما الخطأ في لمس نفسها. صغيرة على فهم أنّ ما أشعرها بالرّاحة كان خطأ.

مسحت إيمي عينيْها بمنديل. شهقت. عيناها الرّماديّتان كانتا حمراوين، وبدت الدموع عرقاً.

ـ تألمت لوقت طويل، قالت. سمحت لي أمّي بالبقاء في الفراش وشرب الليموناضة تخفيفاً لألم حلقي، ذلك لأنّها أقنعتني أنّ العمليّة كانت في حنجرتي وعلى ذلك فهو الموضع الذي شعرت فيه بالألم. ولم أتمكن من لمس

موضع الألم الحقيقي، خوفاً من مخالفتها أو إهانتها. لم ألمس نفسي البتّة ـ بتلك الطّريقة ـ مرة أخرى. وعندما لمست نفسي مصادفة هناك، اكتشفتُ أن لا شيء قد بقي للمسه.

امتلأتُ فرحاً. مارست مختلف أنواع الرّياضات لأنّي استمتعت بالنّتيجة العالية التي حققها الختان. كان جسدي قوياً، ومرناً، وملائماً. لم يُفقد شيء. مارستُ الجنس عملياً مع أي شخص. أضغط بجنون، ولا أشعر بشيء؛ لئلا أشعر بغضبي. وابتسمت ـ بعد مضي الأعوام ـ وأنا أدفن أمّي في قبرها. لكن لم أبدأ التّذكر حتى مات جوش، عندما انتهت حياتي فعليّاً؛ لأن عليّ الشّعور بمشاعري الخاصّة لنفسي. حاولتُ العيش من خلال جسد جوش لأنّه كان كاملاً. دفعتُه ليكون راقصاً. أستطيع تخيّل حزنه عندما لم يعد قادراً على الرّقص من أجلي.

بعد هذا الحديث المأساوي ـ والذي أنقذت نفسي من خلال الخروج من مكتب راي وإغلاق الباب بقوة من ورائي ـ انقطعتُ عن مشاهدة «رفرسايد». أقرأ الآن كل ما تقع عليه عيناي في لويزيانا ونيو أورلينز. تعلّمتُ أنّ لويزيانا كانت ملكاً لفرنسا ذات يوم. ربّما ـ فكّرتُ ـ أعيش من جديد كل الحقد الذي تثيره فرنسا فيّ. واجهَتْ والدة إيمي وقتاً عصيباً في التّواصل مع طبيبتها، والتي لعلها كانت مثلي، غريبة من قبيلة أخرى، لعل مشاكلها نبعت من تعقيد واجهته في اللغة. لعل والدة إيمي كانت تقصد حنجرة ابنتها فعلاً.

الفصل الرّابع عشر:

إيڤيلين- تاشي

اعتصامات يومية في الشارع أسفل نافذتي. لا أستطيع رؤية المعتصمات، لكن همهمات الأصوات تتجاوز جدران السّجن وتتخلّل الأعمدة الحديدية.

ما أسمعه حقيقة - كما تقول أوليڤيا - هم المثقّفون الأصوليون والمتطرفون الإسلاميون وهم يهاجمون النّساء اللاتي جئن من كل أرجاء البلد ليضعن لافتاتهن على الأرض التي تكسوها الجنيبات والشّجيرات عند زاوية المنظر الذي تطل على نافذة زنزانتي. جاءت النّساء بالأزهار البريّة، والأعشاب، والبذور، والخرز، وأكواز الذّرة، أي شيء شعرن أنه ملكهن ويمكنهن الاستغناء عنه. كنّ هادئات غالباً. وغنّين أحياناً. هاجمهنّ الرّجال عندما كن يبدأن الغناء، رغم أنّ النّشيد الوطني هو الأنشودة الوحيدة التي يحفظنها جميعاً ويمكنهن غناءهن معاً. إنّهم يلكمون النّساء بقبضاتهم. يركلونهن. يجيئون ويذهبون، وهم يسببون الكدمات للنساء ويكسرون عظامهن. لا تشتبك النّساء معهم بل ينتشرن كالدّجاج، يتكوّمن عند مداخل المتاجر وفي أرجاء الطريق، حتى يبعدهن أصحاب المتاجر إلى الشّارع بالمكانس.

في اليوم الذي حُكم علي فيه بالإعدام لم يضايق الرّجال النّساء والذين - والعهدة على أوليڤيا - جلسن بكل بساطة، متخفيّات قدر الإمكان عند الأرض المغبرة المكسوّة بالشّجيرات. لم ينطقن، ولم يأكلن. ولم يغنين. لم

أدرك اغتمامهن قبل أن تخبرني عنه أوليڤيا، كم اعتدت على ضجّتهن. حتى بمؤازرة أسرتي لي – وتلطيفهم لأثر حكم الإعدام عليّ – شعرتُ بالوحدة من دون ضجّة الاشتباك في الشارع.

لكن بعدئذ، في اليوم التّالي، بدأن يغنين من جديد، غناءٌ حزين وكئيب، يصحبه صوت العصي التي تضرب على الأجساد.

بيني

لا أصدق أنّ أمّي ستموت ـ وأنّ الموت يعني ألا أراها مرة أخرى. أين يذهب النّاس عندما يموتون؟ هذا هو السؤال الذي أثقلتُ به على بيير. قال إنّ النّاس يعودون إلى المكان الذي جاؤوا منه بعد موتهم. فسألته: وأين هو؟ أجاب: العدم. إنّهم يذهبون إلى العدم. كتبَ بحروف عريضة في دفتري: **العدم= عدم الوجود = الموت**. لكنّه استنكر لاحقاً ـ حركة كتفيه تلك المثيرة للفضول والتي جعلت أمّي تنظر إليه في نهاية المطاف ـ وكتبَ: **لكن كل ما يموت سيُعاد خلقه من جديد.**

سألته إذا كان هذا يعني عودة أمّي مرّة أخرى. فأجاب قائلاً: أجل، حتماً. غير أنّها لن تكون أمّك.

قال: انظر للمسألة من هذا الجانب. كان لشعب أولينكا في عام تسعمئة واثني عشر قائد غبي قضى على الشّعب بالشّنق. الآن حكم عليهم بالموت رمياً بالرّصاص، ويجوب بسيارة مرسيدس في كل مكان، بينما كان في عام تسعمئة واثني عشر يُحمل على أكتاف أربعة من العبيد الأشدّاء في كل مكان يذهب إليه. هل فهمت؟

لم أفهم.

آدم

أنّ يخبرك على الملأ شخص ما أنّ زوجتك ستلقى حتفها لهو فاجعة مريرة. فاجعة تشغلني باستمرار، وتقلقني كحبّة على طرف لساني. تنصحني أوليڤيا بعدم مطالعة الصّحف، لأنّها مليئة بالأراجيف. لا أقوى على تجنبها. غدوتُ مهتماً بمشاكل هذا البلد بشكل سقيم خاصّة وأنّ صحفيين خرقى وفاسدين هم من يكشفون عنها. أُخرست أقلام جميع الصحفيين الثّقات، أو اشترت ضمائرهم، أو قتلوا، أو حكم عليهم بالنّفي. أمّا من بقي منهم، فلهم دور واحد لا غير، ألا وهو: إخبار الشّعب بأكاذيب تستحوذ على إعجاب الرئيس. هناك صورة فوتوغرافية له في كل عدد من الصّحيفتيْن الباقيتيْن: وجه مستدير، أحمق، منير كبدر خبيث. إنّه رئيس لمدى حياته، وهذا أمرٌ مَقضيّ.

يُذكّر النّاس بمناقبه على الدّوام كشاب واجه المستعمرين. إنّهم يُطلعون يومياً على أساليبه في مكافحة انتهاكات المستعمرين الحديثة، والذين يصرّون حتّى الآن على سرقة بلدهم منهم. يُطلعون بإيجاز على كيفية اقتصاده في استخدام مواردهم المتضائلة، وكيف أمر بِرَي بستان قصره مرّة واحدة في الأسبوع، خلال فترة الجفاف الطويلة. بلا شك هو البستان الوحيد في أولينكا ـ البساتين ليست من التّقاليد الإفريقية ـ لكن لا يهم.

كان متشدداً في إصراره على الحكم على تاشي بالإعدام. قيل إنّ جميع زوجاته ـ باستثناء تلك التي من رومانيا ـ خَتنتهُن ميليسّا. النّساء القليلات ذوات الخبرة اللاتي سعين للقائه بغية إنقاذ حياة تاشي عدن خائبات بسبب

سكرتيره وأُنذرن بأنّهن سيخسرن وظائفهن إذا أظهرن اهتمامهن بالقضية مستقبلاً. كانت هناك صورة فوتوغرافية لهن شاهدنها عند انصرافهن. شعرنَ بالخزي، وأعينهن لم تلتقِ بالكاميرا. لك أن تتخيل هربهن من المكان.

أحلم بتاشي ليلاً وأراها كما كانت وهي صبيّة. في أحد الأحلام تذكرت تعبيراً كان محبباً لقلبها: «لكن ما هذا؟» كانت تقوله عندما يُخرج أبي أو أمي أشياء غريبة أحضروها معهما أو أُرسلت لهما من أمريكا. لم تشاهد مشكالاً من قبل قط ـ على سبيل المثال ـ وحتّى خلال تدويره مراراً وتكراراً أمام عينيها الذّاهلتيّن، وتفوّهها بكلمات من «أوه!» و«آه!» لدى مشاهدة الألوان والأشكال المذهلة التي يكوّنها، كانت تقول، بصوت ملؤه دهشة يصيب منا مقتلاً: «لكن ما هذا؟».

أراها في منامي طفلة، نحيلة، متّسخة، دامية الكعبيْن، تقترب من منصّة الإعدام. عُقدة المشنقة تتدلى أمام وجهها. ينتابها الفضول والفرح. يضعه رئيس الجمهورية حول عنقها. لا تزال متعجّبة، تتلمّسها بتبجيل. لكن ما هذه؟ تصرخ عندما تضيق العقدة وتسقط وتصبح نسياً منسيّاً.

تاشي- إيڤيلين

بما أني سأُقتل وستأخذ العدالة مجراها، سُمح لي باستقبال زائرين من غير أهلي الآن. جلبت أوليڤيا دمى الصّلصال المستوحاة من دمى قديمة ترمز للخصوبة.

لكنّها ليست دمى الخصوبة، على ما يبدو. إحدى النّساء - ذات وزن كبير كوزني الآن من أثر الحياة الكسولة وطعام السّجن النّشوي، والصّلب كجذع شجرة - تخبرني أنّ كلمة «دمية» مشتقة من كلمة صنم باللغة الإنجليزية. الأوثان التي ورثها أبناء جيلنا كدمى كانت بالأصل رموزاً للخالق، أمّا الرّبات فرموز للحياة ذاتها. عرَضت أوليڤيا مجموعة صور فوتوغرافية لرُسومات اكتَشفتها بين الكهوف والصّخور في أكثر البقاع جفافاً في البلد. حيث - عندما كنّا أطفالاً - أُخبرنا أنّ السّحرة والغيلان تعيش هناك. اكتشفتُ لاحقاً بعد بلوغي أن الأشخاص الذين عاشوا هناك فعلاً، كانوا رُحّلاً فقراء يرفضون الاستقرار، وكانت الحكومة التّي تتوق لمحاكاة الحياة البريطانية تخجل من قذارتهم والذّباب. قالت الخزّافة، وهي تعضُّ على شفتيها كما لو أنّها تمتص بذرة، أعاد النّاس في العصور الغابرة تلوين الرّسومات عاماً تلو الآخر. ضحِكت. يمكن أن نقول إنّهم عاشوا وسط معرض فنّي شاسع، تلاشت الرّسومات الآن، تكدّر وجهها، وبالكاد يمكن رؤيتها. ومع ذلك فإنه من الممكن بجهد جهيد التّعرف على التّمثال الذي في كوخ ميليسّا، بينما آخذ إحدى الصّور الفوتوغرافية من يديها، قالت ذلك وهي تبتسم ابتسامة عريضة، وتغمض عينيْها، وتلمس منطقتها

الحميمية. لو أنّ كلمة «يخصّني» نُقِشت على إصبعها، فلن يكون معناها أوضح مما فعلت. إنّها حية ترزق. ليست وحدها فقط. تظهر صورة أخرى تمثالاً لامرأة تضع يدها على قضيب تمثال آخر. وهي تبتسم أيضاً. وتظهر صورة أخرى تمثالاً لامرأة إصبعها في عضو تمثال امرأة أخرى. وهي تبتسم أيضاً. جميعهن ضاحكات. وتظهر صور أخرى منحوتات لنساء يرقصن، مع حيوانات تحت ظلال الأشجار، وبعضهن في مرحلة المخاض.

نعتقد أنّ الأطفال يُمنحون هذه «الأوثان» ليلعبوا بها، وكأداة تعليمية، قالت الخزّافة الأخرى ضاحكةٍ، في زمن ما أقدم من مخيّلة الزمن الحاضر، حينما استُعبدت النّساء، انتقلت الرّسومات إلى تحت الأرض حرفياً، ورُسمتْ وحُفظتْ على جدران الكهوف والصّخور. بعض المنحوتات والحجارة في المتاحف حتماً وجزء من المقتنيات الفنيّة الخاصّة. أشهرها تمثال لتزاوج امرأة ورجل. إنّها صورة قديمة، وأغلب الظّن أنها سبب اعتقاد البيض أن قضبان جميع السّود ضخمة. حُطّمت كثير من الأصنام. خاصّة تلك التي تظهر مهبل المرأة وعلامات الرضا على وجهها. هزّت كتفيها باستنكار. وفي يومنا هذا تُعطى كل طفلة صغيرة لعبة تلهو بها. تجسيد صغير للمرأة كأداة لهو، لها أتفه وجه على وجه الخليقة، من دون مهبل البتّة.

ـ من المفترض ألّا يكون لدينا مهبل وفقاً لهذه الخطّة ـ قالت أوليڤيا، بحديث بليغ يعبّر عن شخصيتها أحياناً ـ لأنّ من خلال ذلك المدخل واجه الرّجل أعظم لغز يعرفه ولا يستحقه. إعادة خلق ذاته.

ضحكت الخزّافات.

قالت المرأة السمينة باندفاع: هناك تمثالٌ أفضله، ثم أخذت من أسفل كومة الصّور واحدة فيها ثلاثة تماثيل متّصلة معاً، تشبه كثيراً تمثال القردة الثّلاث: لا أرى شرّاً، ولا أسمع شرّاً، ولا أقول شرّاً الذي جلبه والدا آدم من أمريكا ووضعاه فوق الخزانة في مطبخهم. باستثناء أن هذا التمثال هو نموذج لرجلين وامرأة يضعون أيديهم على أعضائهم الجنسية في محاولة لإخفائها وإخفاء أعضاء من بجانبهم، أيديهم متداخلة وكأنهم فرقة حفل زفاف.

عند التّفكير بالمسألة بهذه الطّريقة، كزواج، ومشاهدة الابتسامات السّريعة على محيّا المحظوظين الثّلاثة، أضحك. رغماً عنّي. كما لو أنّ هذا المشهد قد أيقظ ذكرى نائمة فيّ، أو أحيا ذكرى ميّتة في جسدي، رغم أنّه الآن ـ ويا للحسرة ـ في غاية التّلف ليستجيب بطريقة غير تالفة. بت أعطس.

سمعتُ نفسي أقول أخيراً وأنا أعطس وأضحك. لكن ما هذا؟ البهجة بالنّسبة لي قبسٌ من هذا العالم.

أوليڤيا

قالت تاشي إنّها ترغب في ارتداء فستان أحمر لتواجه التّجمع المشتعل غضباً. ذَكَّرتها أنّ الاستئناف في عقوبتها قد بُتَّ فيه. وهناك أمل كذلك في تشريف الولايات المتحدة لها بمنحها حقّ المواطنة. قالت إنها تريد ارتداء اللون الأحمر في كل الأحوال، بغض النّظر عن كل ما يحدث. سئمت أشد السّأم من الأبيض والأسود.لم يتكوّن أيٌّ من هذيْن اللونين أولاً. الأحمر، هو لون دم المرأة، وقد تكوّن قبلهُما.

وهكذا، خِطنا فستاناً أحمر اللون.

الفصل الخامس عشر:

تاشي- إيفيلين

أنتِ لا تعرفين شيئاً، قالت ماما ليسّا، وأنا أسرّح شعرها. تواصلين طرح الأسئلة، كما البلهاء، عن قومك وأحداث زمانك. أقول لكِ إنّ لون الطّلاء الأحمر هو الاعتراف الوحيد المُتبقّي للمرأة بقوّة دمها ولم تفهميني، وأنّ الأحمر الذي على شفتيْها يشير إلى شيء آخر يختلف عن طعم اللّحم.

حينئذ أصدرت ماما ليسّا صوتاً يشبه النّخير.

في قديم الأزمان قبل أنْ يولد الأولينكيون كشعب، قيل إنّ دم المرأة كان مقدّساً. وعندما يدخل الرجل أو المرأة الرهبنة، فإنّ وجهيهما يلطّخ بالدّم وكأنهما وُلدا توّاً. وهذا تمثيل لإعادة النّشوء: ميلاد الرّوح. عمّدني والد زوجك المُبشّر، وأخفضتُ رأسي ومسكت لساني، لأنّي أعرف أنّ ماء كنيستهم كان بديلاً عن دم المرأة. أولئك من يتّهموني بالتّخلف، يجهلون السّبب.

ماذا أريد من ماما ليسّا غير حياتها الكاذبة؟ قلّبتُ السؤال في رأسي مراراً وتكراراً كما تفعل مجنونة. ألمسُ كل ليلة الأمواس المخفيّة في حشوة وسادتي، وأتخيّل وفاتها الدّمويّة. أقسمتُ على التّمثيل بجسدها المترهّل حتى لا يتعرف الرّب عليها. ابتسمتُ عند تخيّل أنفها الملطّخ بالدّماء على السّرير. لكن في كل صباح، كراوية الحكايات شهرزاد، تُخبرني ماما ليسّا بنسخة أخرى عن واقع لم أسمع به.

ذات يوم، وبينما كنتُ أغسل بحذر بيْن أصابع قدمها التي تشبه مخالب

الغراب، أخبرتني برقة أنّ مقتل تسونغا على يد إحدى من خَتَنتهن هو فقط ما برهن على أهميتها الختانية في القبيلة. صرّحت بأن مقتلها حتميّ. سوف يُعلي من مرتبتها إلى مرتبة القدّيسين.

هذا الاعتراف، أو الكذبة، ظلت في ذهني لأيام تاليات.

ماما ليسَا

أعلمُ علم اليقين أنّ الشّباب لا يستطيعون تخيّل أو حتّى تخمين أنّ المرء إذا شاهد الكثير من الحياة، فإنّه سيدرك أن موته هو الأفضل.

شاهدتُ موتي في عيني تاشي منذ أول يوم وصلت فيه، وقد كان جليّاً كما لو كنتُ أنظر إلى المرآة. عيناها عينا مجنونة. أتعتقدْ صدقاً أنّي لم أشاهد المجانين والقتلة من قبل؟

كانوا في القرية يحبسون المجانين في الأحراش في أيّام صباي. عاشوا وحيدين في الأكواخ الخربة ذوي الرّائحة الكريهة، في أسمالهم البالية، شعورهم الشّعثاء تغطي ظهورهم كطحالب. تعلّمتُ ألّا أهابهم، ذلك أنّي اكتشفتُ، وكما يعرف جميع من في القرية، أنّ المخبولين، ورغم أنهم سفاكون للدماء، لا يمكن أيضاً صرف انتباههم بسهولة. إذا ما اندفعوا ليطعنوك، فعليك أنْ تقدم له أو لها ـ هناك معتوهون من الرّجال ومعتوهات من النّساء دائماً، والذين لم يختاروا العيش معاً إطلاقاً ـ بطاطا حلوة، أو تسرد له قصّة لن يفهمها غيره. قصصٌ تثير الضحك، ووقائعها غبيّة، ستجعله ينتحب. أمّا القصص المأساوية بالنّسبة لنا، عن معاناتنا الشخصية أو معاناة من في القرية، فستضحكه كما لو أنه إبليس. وبينما يضحكون أو يبكون، أو يأكلون البطاطا الحلوة الخاصة بهم، أو يحاولون تحديد موقع العشب العطري الذي وضعناه في سجونهم المطحلبة ولن ينجحوا غالباً، نهرب بعيداً.

طرحتُ على تاشي الأسئلة التّالية وقد فشلت حتّى الآن في الإجابة عنها بشكل صحيح. قلتُ لها: يا تاشي، من الواضح أنّكِ تحبّين البلد الذي تبنّاكِ كثيراً، أريدك أن تخبريني كيف هو شكل الأمريكية؟

إيڤيلين- تاشي

ما هو شكل الأمريكية؟ سألتني العجوز الشّمطاء. شرعت بوصف راي فوراً. أجبتها: إنّهن بلون لم نشاهده في إفريقيا قط. باستثناء لون بعض جراب البذور أو أنواع الخشب ذوي اللون البني الفاتح. لهن شعر مموج وفي الوقت ذاته أجعد بعض الشيء، ولم يشاهد في إفريقيا أيضاً. وفيه تكلف، لم يشاهد في إفريقيا أيضاً. أصاخت ماما ليسّا السّمع ثم تساءلت بدهاء «حقّاً؟». لكن أليست أمريكا أرض شديدي البياض؟

عاجلتها في وصف إيمي ماكسويل: ابتسامتها المواربة وبشرتها الزّهرية المصفرّة، وعظام كتفيها البارزة وعينيها اللّامعتيْن، وشعرها الأبيض المنفوش، وحزنها وألمها.

لكنّ ذلك لم يرضِ ماما ليسّا.

بدأتُ أصف أشخاصاً ببشرة بيضاء وعيون مسحوبة. قالت متهكمة لابد أنّهم من الأسكيمو الذين سمعتُ عنهم. يعرف الجميع أنّهم يعيشون في مكان معزول في الشّمال المتجمّد. أيمكنني وصف أمريكي حقيقي؟

أصف رجالاً بيضاً من التّلفاز، بأصواتهم العذبة والدّفء الزّائف الذي في أعينهم، وهنوداً من الهند والأمريكيين الأصليين من مينيسوتّا، نساء شعورهن سوداء وبشرتهن ورديّة. ذوات بشرة صفراء بعيون زرقاء. ببشرة داكنة وعيون سوداء يتحدّثون لغة بلد آخر.

ماما ليسّا تنتظر.

يبدو أنّه لا يوجد جواب على سؤالها. الأمريكيون، لقد جاؤوا من

أماكن متعدّدة في نهاية المطاف.أعتقد أنّ هذه الفكرة وحدها أذهلت ماما ليسّا، والتّي لم تذهب لأي مكان آخر.

إذا قلتَ لشخص ما في إفريقيا: كيف يبدو شخص من أولينكا أو ماساي، فهناك جواب سهل. إنهم سمر أو شديدو السّمرة. إمّا أن يكونوا قصيرين بشكل ملحوظ (الأولينكيون) أو طوال القامة (الماسّاي). لكن لا، ليس القصر أو الطّول، أو السّمرة أو الحمرة هو ما يصنع الأمريكي.

في نهاية المطاف، هزمتها، لكنّي شعرتُ أيضاً بخدعة قديمة، أوقفتُ لعبتها هذه، وقربتها من يوم هلاكها.

ما هو شكل الأمريكي؟ أثارتني بلا مبالاة عدّة أسابيع وقد أجبتها بمئات الأوصاف عن الأمريكيين الذين يشبهون بعضهم جسدياً ومع ذلك يشبهون بعضهم كثيراً في تاريخ هروبهم من الألم.

ما هو شكل الأمريكية؟ سألتُ نفسي بصوتٍ خفيض، ونظرت لعيني ماما ليسّا. أذهلتها الإجابة.

قلت لها وأنا أتنهّد وأدركُ حبّي ربما لأول مرّة للبلد الذي تبنّاني: تبدو الأمريكية كامرأة جريحة. جرحها خفيّ عن الآخرين، وأحياناً عن نفسها. تبدو الأمريكية مثلي.

الفصل السّادس عشر:

تاشي- إيڤيلين

فُرض عليّ غسل ماما ليسّا فور مغادرة مباتي، شاهدتُ سبب لؤمها. لم يستأصل بظرها فقط، ولا أشفارها الدّاخلية والخارجية فقط، ولا قطعة لحم، لا بل إنه شق عميق امتدّ متّصلاً بوتر عضلة وركها. ولهذا السّبب عليها جر رجلها اليسرى عند المشي. كان يسند قدمها وتر الورك الخلفي وعضلات المؤخرة فقط. في الواقع، كان الورك الأيسر أكثر نمواً من الأيمن، ورغم أنّها لم تمشِ بحيوية سنوات طوال، إلّا أنّ هناك ليونة في لحم ذلك الجانب.

- أجل، المْسيه يا ابنتي، صاحت، وهي تشعر بأصابعي تستكشف نسيج النّدبة القديم، كان صلباً كجلد حذاء. إنّها علامة عقوقي أمي، على جسدي.

ومنذ ذلك اليوم الذي عزمتُ فيه على قتل ماما ليسّا، لم أكن أكيدة من اهتمامي بحياتها. أي، حياتها قبل قتلها دورا. لكنّها كانت تتذكر، وأنا لم أكمل غسلها. أصغيتُ وأنا في شِرْك.

ماما ليسَا

منذ أن أصبح أفراد أولينكا شعباً كان شعب تسونغا[1] حاضراً. كانوا إرثاً كالكهنوتية. وقبل أن يصبحوا قبيلة مترامية الأطراف كانوا جماعة. بإمكانك اعتبار زمنهم زمن الشّر، لأنهم ورغم أنهم عرفوا جميعاً أنّ لديهم أمّاً، لأنّها أنجبتهم، إلا أن الأب ليس من ينجب. لا يمكن التحقق منه. وهكذا، فإن والدة إخوانك هي والدهم أيضاً. المنزل ـ في تلك الأيام ـ تملكه النّساء، ولا يوجد البتّة أطفالٌ بلا والدين أو منزل، لكن لسبب ما اعتُبر ذلك شراً. على أي حال، منذ الأزل، ودائماً، كانت نساء عائلتي تسونغا.

ـ لكن لماذا؟ سألتُ أمّي.

ـ لأنّه شرف كبير، أجابتني. ولأنّها طريقة لملء بطوننا.

كانت أمي امرأة حزينة. لم أشاهد ابتسامتها قط.

تصلّي غالباً.

عندما صرت في عمر أُدرك فيه معاناتها، بدأتُ ألاحظ أنّها عندما تصلي، تتوجه نحو ناحية معيّنة، وأنّها تمشي ببطء، وهي تنظر إلى كتفها باتجاه صلواتها، كما لو أنّ شخصاً يلحق بها.

في إحدى المرّات، وأنا أتبعها، شاهدتها تدخل غابة تالفة لم يدخلها أحد إطلاقاً. مشت نحو شجرة عفنة، وأخذت شيئاً ما منها. نزعت غلافه،

1- ينحدرشعب تسونغا من وسط وغرب إفريقيا قبل 200 ـ 500 سنة قبل الميلاد ومنها انتشروا في القارّة السّوداء، لكن الكاتبة خلقت استخداماً جديداً للكلمة من مخيلتها، وهي تعني الخاتنة. المترجمة.

نظرتْ إليه، قبّلته، وأعادته، بخطوة واحدة. كانت هذه الغابة بمثابة أرض لم يطأها بشر، جدباء. كل ما فيها جاف ويحتضر. قيل إن سبب هذا التّلف زنى امرأة ورجل قبل وقت طويل، عندما كانت هذه المنطقة مزروعة قمحاً. لكنّ حدث هذا قبل زمن طويل، ولا أحد يتذكر مصيرهما، أو حتى يعرف من هما.

بعد أن غادرت أمّي، تسللت إلى الشّجرة حيث يوجد الشيء المُغلّف، ووضعته في حضني بحذر، حيث فتحت غلافه. كان تمثالاً صغيراً لامرأة بيد واحدة على عورتها، كل جزء بدا سليماً. حدث هذا قبل ختاني، وهكذا، بفضول طفلة قارنتُ جسدي بالتّمثال. وعلى عجل أعدت تغليف التّمثال الصغير، ووضعته في مكانه، وركضت.

كنتُ أعود دائماً إلى المكان التّالف وأخرج التّمثال الصغير من الشجرة وألعب به. لكن بدا لي مقارنة نفسي به غير ممكنة مرّة أخرى. وهكذا، لم ألمس نفسي من جديد قط. ولو أنّي كنت قد فعلتُ ذلك، لكنتُ قد اختبرتُ الشّعور الذي تحاول نساء تسونغا منعه.

هل تستطيعين تخيّل حضور الأحاسيس في حياة تسونغا؟ تعلّمتُ ألّا أشعر. يمكنكِ تعلم ذلك. كنتُ في هذا أشبه جدّتي، والتّي أصبحت قاسية الفؤاد حتى أطلق عليها النّاس «أنا البُطينيّة». كانت تختن الفتيات وتطلب الطّعام بعد ذلك مباشرة، حتى لو استمرّت الطّفلة في الصّراخ. وكان هذا بمثابة تعذيب لأمي.

بعدها، أجبرت أمي على ختن الفتيات اللاتي في عمري.

قبل ذلك اليوم، ابتهلت إلى وثن لأسابيع. وعندما حان دوري حاولَت الاكتفاء بقطع سطحي. اقتطعت الشفرين الخارجيين حتماً، لأنّها كانت تحت أنظار أربع نساء قويّات أمسكنني، والشفرين الداخليين أيضاً. لكنّها حاولت ترك بعض الإحساس لدي، هناك في الأسفل. بالكاد لمستني هناك. لكن الأخريات شاهدن ذلك.

ما بدأته أمّي، أنهاه الطّبيب المشعوذ. لقد تعلّم كل التطبيب والعلاجات

من النّساء، ولهذا أطلق عليه الطبيب المشعوذ. كان يرتدي تنورة المشعوذة الخضراء، لكنّ المشعوذات اللاتي علّمنه قد حكم عليهن بالموت، لأنهن رفض الختان وكنّ قويّات مقارنة بالأخريات ويصعب تركهن يتمتعن بحريتهن، دون ختان. لم يرحمني. وبذعر وألم لا يحتملان تقرّح جسدي تحت مشرطه الحاد...

لم أعثر على نفسي مرّة أخرى، ذلك لأنّ الفتاة التي نهضت من على البساط بعد ثلاثة شهور، وجرّت نفسها خارج كوخ الختان إلى منزلها، لم تكن الطّفلة التي دخلته. لم أقابل تلك الطّفلة مرّة أخرى.

تاشي

ومع ذلك، تصلّبتُ أمام صدر ماما ليسّا المضطرب، توقّعت الدّموع، لقد شاهدتِها مرة تلو المرّة، آلاف المرات. كانت هي من تصرخ أمام سكّينك.

شهقت ماما ليسّا. لم أبكِ بعد ذلك قط، قالت. كنت أعلم حينها أنّ الألم إذا تعاظم، وبلغ منتهاه، وانغرز السكين المعدني، بأن لا وجود لربٍ يعرفه البشر ويهتم بالأطفال أو النّساء. وأنّ ربّ النّساء هو التحرر.

ـ ابكي، قلتُ لها. لعل في ذلك عزاء لكِ.

لكن بإمكاني رؤية أنّ لا مبرر يدفعها للبكاء حتى الآن. كانت أشبه بامرأة ضُربت كثيراً حتّى تجمّدت عاطفتها. توجّعتْ، لكنها تبلّدت عاطفيّاً.

لماذا فعلوا ذلك بنا؟ تساءَلتُ. لم أعرف الجواب إطلاقاً. والنساء، حتّى اليوم، يعدن بعد الإنجاب إلى التسونغا لتتم خياطتهن، أضيق من ذي قبل. لأنّه لو كان واسعاً فلن يستمتع الرجل كفاية.

ـ لكنكِ أنتِ من علمتهن هذا، قلتُ لها. هذا ما قلته لي، هل تذكرين؟ إنّ المرأة غير المختونة واسعة كحذاء مهما كان حجمه فإن الجميع سينتعله حسب كلامكِ. هذا غير ملائم، قلتِ لنا. غير نظيف. المرأة المناسبة يجب أن تُختن وتخاط لتلائم زوجها فقط، والذي تعتمد متعته على فتحة قد تتسع في أشهر، أو حتى سنوات. يعشق الرّجال بذل الجهد، كما قلتِ. لأنّ المرأة... لكنك لم تقولي شيئاً عن المرأة، أليس كذلك يا ماما ليسّا؟ عن متعتها أو معاناتها.

أنا أنتحب الآن. على نفسي. على آدم. على ابننا. على ابنتنا التي أُجبرتُ على إجهاضها.

كما تعلمين هناك عمليات قيصرية، قال طبيب الإجهاض. لكنّي كنتُ أعلم أنّي لن أتحمل تقييدي وقطع جسدي. مجرد التّفكير في ذلك جعلني أغرق في عتمة أفكاري، التي اختبأتُ منها لأشهر. شاهدتُ كل عام استعداد آدم لزيارته باريس مرتين، ليكون مع ليزيت وابنهما، شاهدتُ صراع بيني مع كل ما يتعلّق بي، ليذوب في جسدي، يشتمّ رائحتي، وكنتُ كغراب، أصفق جناحي دون توقّف في رأسي، أنعب في سماء خاوية. وكنتُ أرتدي السّواد، والسّواد، والسّواد.

أعرف أنّي إذا نظرتُ إلى ماما ليسّا فسوف أهجم عليها وأخنقها. لحسن الحظ ما كنت قادرة على الحركة. أنظر إلى أسفل قدمي. قدماي تترددان عند المشي على أي سطح غير مستو: السّلالم، والتّلال. قدمان لا تقفزان على الحصى تلقائياً أو برشاقة ولا تدوسان على الأرض بخفّة.

لعلّ ساعات قد مرّت. أعتقد أنّ ماما ليسّا قد خلدت للنوم. أنظر إلى السّرير وتذهلني ضآلة حجمها. كأنّها قد تقلّصت. أنظر إلى وجهها. إنّه حذر، منتبه. لكن ليس بسببي. بدا أنّها نسيتني.

ـ شاهدتها أخيراً. قالت بذهول، ثمّ غرقت في أفكارها.

ـ سألتها: شاهدتِ من أخيراً؟

قامت بحركة رفض بسيطة بيدها، وهي تحذّرني من مقاطعتها.

ـ الطّفلة التّي ذهبت إلى كوخ الختان، قالت. أتعلمين أنّي تركتها تنزف هناك على الأرض، وخرجتْ. كانت تبكي. شعرَت بالغدر. خيانة الجميع لها. لقد ضربوا أمها بشدّة أيضاً، ولامت نفسها على ذلك. تنهدّت ماما ليسّا. لم أستطع التّفكير فيها بعد تلك الحادثة. كنت لأموت. ولذلك غادرتُ مبتعدة، عرجتُ مبتعدة، وتركتها هناك بكل بساطة. توقّفت ماما ليسّا. إنّها تهمس وهي تواصل حديثها، مذهولة. ما زالت تبكي. إنّها تبكي مذ غادرتُ. لا عجب أنّي لا أتمكن من البكاء. لقد ذرفت دورا كلّ دموعنا.

ماما ليسَا

كنتُ قويّة. هذا ما أقوله للسيّاح القادمين لزيارتي، والأمّهات الشّابّات والأمّهات الأكبر سنّاً وكل من أتى لزيارتي. وهو كذلك ما يقوله الجميع لي: الرّئيس والسّياسيون والزّوار من الكنائس والمدارس. قويّة وشجاعة. أجر نصف جسدي إلى حيث الحاجة إلى نصف جسد. في خدمة التّقاليد وما يجعلنا شعباً. في خدمة البلد وما يجعلنا ما نحن عليه. لكن ومن نحن سوى مُعذّبين للأطفال؟

الفصل السّابع عشر:

قاشي

تجمّع في كنيسة بيضاء صغيرة في الطّابق العلوي من السجن كل من: آدم، وأوليفيا، وبيني، وبيير، وراي، ومباتي. جاءت راي إلى هنا لحضور تنفيذ الإعدام، رغم أنّها لا تؤيده. ليس في موتكِ ما هو مذهل، قالت بلا مراعاة. ما تزال حياتك تهمني. كما قالت بوقاحة ويدها على شفتيها: لم تموتي بعد!

ـ صحيح، أعتقد أنّي لم أمت بعد. لكن لن أقول إني حيّة كليّاً.

قالت مباتي: نظراً لتدهور بقية مبنى السّجن، فمن الغريب أنّ الكنيسة ما زالت سليمة البنيان.

ـ هذا لأنّ ما من أحد يستخدمها، قال آدم، وهو يشير إلى إنجيل مغلق، أكل العث حوافه المذهّبة.

حتى هنا المكان بارد، في المساءات، لا النّوافذ العملاقة، ولا حتى مصاريعها، تمنع مرور النّسمات. لا توجد أعمدة على النّوافذ، على ما يبدو لأنّها مرتفعة للغاية ويصعب القفز منها.

منذ المحاكمة، تطوّعت أوليفيا للعمل صباحاً في طابق المصابين بنقص المناعة. آدم، وبيني، وبيير استأجروا سيّارة جيب واستكشفوا الرّيف. قمنا بتصوير كل شيء، قال بيني، ونريدك أن تشاهديه الآن.

شغّل آدم جهاز العرض. في البداية كانت هناك «زحليقة» أطفال. صور من الإقليم الشّمالي والمنحوتات الصّخرية ورسومات الاحتفالات والصيد

المتلاشية. بعد ذلك كان هناك فيلم. أعرف تماماً أنهم يحاولون إعدادي له لأن أوليڤيا ناولتني فجأة كأس ماء وآدم أمسك بيدي.

بيير، الذي قال في البداية إنّه يرغب في أن يكون متخصّصاً في الأنثروبولوجيا ليقوّي حججه ولا يعرضها لمزيد من الخطر، يقف الآن بهدوء إلى جانب الجهاز.

أعتقد أنهم أروني في البداية مستعمرة بشرية. أشكال مخروطية. أكواخ كالفطر. لكن بعدها هناك تقريب للعدسة على «الأكواخ» وقدمي رجل ورجلين فوقهما. تعرّفتُ على حذاءي النّزهات الخاصّين بآدم. ثمّ، عندما انفتحت الصّورة، شاهدتُ أنّ المستعمرة مترامية الأطراف، لكنّ «الأكواخ» صغيرة الحجم، من ثلاثة إلى ستة إنشات ارتفاعاً.

ـ ها خدعتكِ!قال آدم، وهو يشدّ على يديّ.

ـ اعتقدتُ أنها قرية، قلتُ له، وأنا ألتفت إلى أوليڤيا ومباتي. ألم تعتقدا ذلك؟

ابتسمت مباتي. أجابت أوليڤيا بالإيجاب. رغم أنّي أتساءل عن ذلك الكوخ المنخفض الذي يميل ميلاً شديداً باتّجاه اليسار.

ـ لكن ما هذا...، بدأتُ أقول، لكنّي غصصت عندما حاول قلبي مغادرة صدري فجأة.

ـ لا بأس، قال آدم. لستِ وحدك. نحن جميعاً هناك معكِ.

ـ لستِ وحدكِ. لستِ وحدكِ، لستِ وحدكِ، سمعتُ راي تقول. وكأنّ صوتها الحيويّ يصلني من عصر آخر. أعتقد أنّ للنساء غير المختونات صوتاً مختلفاً. قد يبدو صوتهن جذلاً. وصوت المختونات ليس كذلك.

فكرتُ بهذا بسرعة. عقلي في رحلة كئيبة من مشاهدة عمود طويل بلون الأرض وصلب على الشاشة قبالتي، بيني، قزم إلى جانبه، يبتسم بشك إلى الكاميرا. حقيبتي من الصّلصال.

تنحنح بيير،ثمّ قال بعد أن أوقف جهاز العرض على الصّورة التي أمامنا: إنّ البشر في إفريقيا (الأوائل على الكوكب، كما يُعتقد)، وبسبب

الحرارة المرتفعة والرّطوبة، قلّدوا الأرضة عندما بحثوا عن سكن مريح يبقى طويلاً ويمكن بناؤه بسهولة. ولذلك يوجد كثير من المنازل الإفريقية، وحتى اليوم، المبنيّة من الطّوب في كل مكان، وهي تشبه مساكن الأرضة التي علّمت البشر الأوائل التّبريد الطبيعي للهواء، عن طريق البوابات المقوّسة الطويلة وغرف التّخزين المحدّبة. مساكن الأرضة، كما البعوض، باردة دائماً، مهما كانت درجة الحرارة في الخارج. مساكنها مصنوعة من الأرض نفسها، من الطّين، أرخص المواد وأكثرها توافراً.

ما يذهلني هو أنّ بإمكاني سماع بيير، وحتّى فهم ما كان يقوله. صحيح أنّ قلبي حاول القفز من مكانه، لكنّه الآن ينبض بشكل طبيعي. نظرتُ حولي في الغرفة إلى الوجوه المجتمعة. إنّهم منهمكون في التّفكير مثلي.

أنظر إلى بيير وأفكّر: أجل، من الجيّد تدريب أطفالنا على مساعدتنا. نحن من نحتاج المساعدة. أرسلتُ بطرفة عين عرفاناً إلى جامعتين التي لم تطأهما قدماي، بيركلي وهارفرد. إذا تمكّنت من البقاء على قيد الحياة، أعتقد أنّي سأزورهما كما لو أنّهما مزار مقدّس.

ـ أعتقد ـ واصل حديثه ـ أنّه بمرور الوقت كان هناك تآلف شديد مع الأرضة، والتي يطلق عليها الإفريقيون اسم «النّملة البيضاء» رغم أنّ شبهها ضئيل بالنّملة. وعلى عكس النّملة، وأغلب الحشرات الأخرى، أبقت الأرضة للذكور مكانة في مجتمعها. هناك ملكة، وملك أيضاً. وقد يكون هذا هو سبب شعور النّاس بالتّماثل معها. النّمل الأبيض ـ كما تعرفين ـ يأكله النّاس في الرّيف، ويفضلونه مقليّاً.

ـ وفي المدينة أيضاً، إذا تمكنّوا من الحصول عليه، قالت أوليفيا. نظرت بحدّة إلى مباتي. رؤية إقبال الشباب على رقائق البطاطا تثير الاشمئزاز!

ضحك آدم. دفعت مباتي كيس رقائق البطاطا بعمق في حقيبتها.

ـ رموزهم الدّينية صارت تعكس سلوك الأرضة تماماً، أكمل بيير. امتنانهم، لأنهم تعلّموا الكثير منها، كان هذا عظيماً.

ـ وبلا شك كانت الأرضة لذيذة للغاية، قالت راي.

ـ فهي ـ تابع بيير ـ قد علّمتهم صنع الأصص، والتي أدّت بلا شك إلى فكرة أنّ الإنسان الأول كان يهوى الصّلصال، وذلك الشّيء أو ذلك الشّخص قد أبدع في صنعها.

ـ ولكن ـ أردف بيير ـ وهو يمرر أصابعه البنية النّحيفة في تموجات شعره التي صارت أفتح لوناً من تأثير الشّمس، دون أن يمررها مراراً وتكراراً على... هذا يا مدام جونسون، برجك الدّاكن. أنت الملكة التي فقدت جناحيها. أنت من تستلقين في العتمة مع ملايين الشّغالات من الأرضة، والمنهمكات بالمناسبة بالحفاظ على مزارع الفطر التي تغذّيكِ، وطنينها حولك. لقد شبعت من الطعام، نظام غذائي ممل يتكوّن من الفطر. وضعتِ البيوض، الملايين منها، فوق بعضها البعض. أنت السّمينة، الشحمية، بلون بصقة من التّبغ، خاملة؛ مجرد أنبوب تعبر منه أجيال من الأعقاب، لعل عدم قدرتها على الرؤية سببه نشاطها المستمر، الذي لا يتوقف لا في ليل أو نهار. وأنت يا من تتحملين هذا كله، ستموتين في النّهاية، وسيلتهمكِ من جلبتهم لهذه الحياة.

ـ آه ـ قالت أوليفيا ـ الأرضة تشبه يسوع!

لكن كيف عرفت هذا؟ سألت مجموعتي الصّغيرة من الوجوه المتاملة. لم يجبني أي منهم.

قالت راي: نعتقد أنّها نقلت لك عن طريق شفرة ما. لم تذكر بشكل مباشر لك، كامرأة، كان المتوقع أن تتكاثري بلا مساعدة وبسكون نملة بيضاء؛ ولكن في ثقافة من الإجباري فيها سلب كل أنثى قدراتها الجنسية على نحو ممنهج، يجب أن يكون هناك نوع من التّشفير، أسباب ميثولوجية تقدّم لها، تستخدم سرّاً بين عجائز القرية. وإلا لن يجدن ما يتحدثن عنه عمّا قريب. هناك قرى حتى اليوم لا تسمح بوجود غير المختونات بينهن. يأمر الزّعماء بذلك. ومن ناحية أخرى، الختان محظور لا يُناقش. كيف سيضمن كبار السّن استمراره؟ وطريقة مناقشته؟

ـ رأسي صفحة خالية. بالتأكيد لم يخبرني أي شخص أي شيء باستثناء أنّ... هذا الشيء الذي فعلته ماما ليسّا بي يعبّر عن اعتزازي بشعبي، ودونه لن يتزوجّني أي رجل.

ـ ربّما ـ قالت راي ـ لديك أنشودة أو ترنيمة وأنت طفلة، بريئة كبراءة «بيتر، بيتر، آكل اليقطين / كانت لديه زوجة لم يتمكن من الاحتفاظ بها/ وضعها في يقطينة / فاحتفظ فيها بشكل جيد».

ـ ماذا؟ تساءل بيني متحيّراً.

ـ إنّها عن جعل المرأة حاملاً على الدوام قال بيير، وهو يمد يديه ويديرهما على شكل يقطينة. عن استعبادها جسداً.

ـ نحن نعرف، من كتاب غريول، أن من بين أفراد قبيلة الدّوغون كان كبار السّن تحديداً هم حُماة معرفة بداية الخليقة. الخلق ذاته بدأ من خلال الاستئصال والاغتصاب... أتساءل إذا كنتِ تذكرين درسنا الصّغير، من كتاب غريول يا مدام جونسون، قال بيير وهو ينظر إليّ.

ـ يذهلني أنّي أتذكره. أراد الإله أن يتصل بالمرأة، قلتُ له. فصدّته المرأة. كان بظرها كتلّ الأرضة، مرتفعاً ويعيق طريقه.

ـ جيد، قال بيير.

ـ يا إلهي، قالت راي. أعلم أنّ هذا قد يبدو سخيفاً، لكن في تسوية البظر تشابه طفيف مع تل أرضة صغير، أو منزل.

ـ حسناً، قال بيير، وهو يشير إلى الكوخ الأضخم على الشّاشة حيث يقف بيني، شيء كهذا يشبه القضيب بوضوح.

ـ عندما يستثار البظر، تابعتُ حديثي، اعتقد الإله أنه ذكوري. وبما أنّه «ذكوري»، فله عذر في قطعه، وهو ما فعله، ثم ضاجع الثقب الذي تبقى. أتذكر بالطبع أنني قلت لبيير أن غريول قد قال إن الإله كان لديه علاقة، إلا أنني أنا من قال إنه ضاجع.

ـ وهكذا يجد الأشخاص الذين يبترون الفتيات الصّغيرات بداية الحياة. تأوهت أوليفيا وهي ترمي رأسها بين يديها.

ـ الدّين حجّة مفصّلة لما فعله الرّجل بالمرأة والأرض، قالت راي بمرارة.

ـ لكن كانت هناك أديان أخرى، قلتُ وأنا أفكر بتمثال المرأة الصّغير التي تحب نفسها.

هزّ بيير كتفيه استنكاراً. لقد قضي عليها. تمثال ربّتك الصّغيرة دُمّر.

التفتّ إلى مباتي. وجهها الجميل مليء بالرّعب. لا أحد يعرف هذه القصّة، قالت. وأكدت على ذلك بغضب ظاهر بغضب ظاهر، حتّى إنّ لا أحد يعرف سبب قيامهم بذلك، وليس لدي أدنى فكرة عن سبب فعلهم هذا بي. إذا كانت أعضائي غير نظيفة، فلماذا خُلقت في جسدي أصلاً؟ سألتُ أمي هذا السّؤال مرّة، قبل أن أختن. كل ما قالته إن الجميع يعلم أنّه قذر، ويجب أن يُستأصل. هذه كل المسألة. لا أرضة، لا «نمل أبيض»، لا تشابهات بنائية بين العورة ومساكن الحشرة ناقشناها. وهل من شخص لن يضحك على فكرة أنّ البظر سينتصب كما العضو الذكري؟

تسألني أوليڤيا إذا كنتُ جائعة أو عطشانة. لستُ أكيدة. شطرني منظر غضب مباتي لنصفيْن. جزء منّي يجلس وسط عائلتي وأصدقائي. وجزء آخر يشاهدني وأنا طفلة صغيرة تحضر طبقاً من الطّعام وماء لرجال القرية الكبار في السّن. إنّهن يجلسن في ظل شجرة الباؤوباب[1] ويتأملن بحكمة الأرض الجرداء. الحرارة عالية لكنّها لا تزعجني. الأرض حمراء. ثمة ذباب. ولأنّي صغيرة، لم يوقفوا حديثهم.

قال الأول: ما هو الرّجل؟

جميعهم: هاه!

قال الثّاني: الرّجل أعمّى.

جميعهم: هاه!

قال الثّالث: يملك عينيْن.

1- baobab شجرة استوائية عريضة الجذع. المترجمة.

جميعهم: هاه!
قال الرّابع: لكن لا يستطيع الرّؤية.
قال الأول: الرّجل قضيب الرّب.
قال الثّاني: يشقّ الأخدود.
قال الثالث: يُسقط البذرة.
قال الرّابع: لكنّ نسله...
قالوا جميعاً: المحصول!
قال الأول: البراز!
قال الثّاني: لا يمكنه التّبيّن.
قال الثّالث: قضيب الرب الأعمى ينتج بيض الرب الأعمى.
قال الرّابع: أليس البيض أعمى؟
قال الأول: إنّه أعمى.
قال الثّاني: غُرز التّسونغا تساعده في معرفة محصوله..
قالوا جميعاً: وجميعه ملك للرب.
قال الثّالث: ولهذا يقال...
قال الرّابع:... رغم أنّ التسونغا امرأة...
قال الأول: إلّا أنّها تساعد الرّب.
الجميع: أليس هذا صحيحاً؟
الجميع: إنّه صحيح.
الجميع: المرأة ملكة.
قال الأول: إنّها الملكة.
قال الثّاني: وهبها لنا الرّب.
قال الثّالث: نحن ممتنون للرّب على عطاياه.
(ورغم ذلك، لم يشكروا الطّفلة على جلب الطّعام أو يرسلوا شكرهم لوالدتها على إعداده).
قال الرّابع: وبما أنّ الرّب قد وهبنا إيّاها، فيجب أنْ نحسن معاملتها.
قال الأول: يجب أن نطعمها حتى تكون ممتلئة.

قال الثاني: وحتى برازها سيكون كذلك.
(ضحك الجميع).
قال الثّالث: ستطير إذا أتيح لها المجال.
قال الثّاني: صحيح.
قال الثّالث: وكيف سيكون حالنا حينها؟
قال الرّابع: لكنّ الرّب رحيم.
قال الأول: لقد طوى جناحيْها.
قال الثّاني: إنّها بطيئة.
قال الثّالث: وحتى برازها لذيذ.
(ضحك).
قال الرّابع: لأنّها الملكة!
قال الأول: ونحن لسنا سوى عُمّال!
قال الثّاني: عُمي، هذا صحيح، لكن هذه مشيئة الرّب.
قال الثّالث: ألم يخلقنا كذلك؟
قال الرّابع: صحيح.
قال الأول: وألم يوجِد جسد الملكة لنضع فيه ذريّتنا؟
قال الثّاني: وليكون غذاءنا؟
قال الثّالث: لا يمكن نكران ذلك.
قال الرابع: وعندما تستثار...
الجميع: هاه!
قال الثّالث: يستثار حقّاً.
قال الرّابع: كما سيفعل الرّجل.
قال الأول: هي لم تر فأس الرّب.
قال الثّاني: لم تره، كانت عمياء مثلنا في ذلك الوقت. لم تشاهده.
قال الثّالث: أصاب الرّب بجعلها ملكة!
قال الرّابع: جميلة بالنسبة إليه لكي يضاجعها.
قال الأول: يحبّ الصراع!

(ضحك)

قال الثّاني: يحبه ضيقاً!

قال الثّالث: يحب أن يتذكر ما فعله، وإحساسه قبل أن يتّسع.

قال الرّابع: ولهذا خلق التّسونغا.

قال الجميع: وصخرتها المسنّنة وكيساً فيه أشواك!

قال الأول: وإبرتها وخيطها.

قال الثّاني: لأنّه يفضله ضيّقاً!

قال الثّالث: يحب أن يشعر بالعظمة.

قال الرّابع: وهل من رجل لا يحب ذلك؟

(ضحك)

قال الأول: لنأكل هذا الطّعام، ونشرب نخب الملكة الجميلة، والتّي مُنح جسدها لنا ليكون سنداً لنا ما حيينا.

(ضحك، وضّجة تناول الطّعام)

الطّفلة الصّغيرة التّي كنتها لم يلحظها أحد البتّة، وكأنّها ذبابة أو نملة. لا ألحظهم عادة، أيضاً. كانوا دائماً هناك تحت شجرة الباؤوباب، مسنّون بلحى غزاها الشّيب. يرتدون أردية سميكة غامقة اللون درءاً لأشعة الشمس. رؤوسهم الحكيمة ملفوفة بعمامة وعيونهم تعكس فراغ الأرض الخاوية التّي تحيط بهم.

بالنّظر إليهم الآن من كنيسة السّجن الآمن، من أمان الموت المحدق، أستطيع أنْ أرى أنّ جميعهم قشور، حيوات خاوية. هم من امتلؤوا بالطّعام، بينما لا يخرج من أفواههم إلا الخبيث من الكلام. الطّفلة التّي علمها والداها احترام كبار السّن، لا تستطيع اكتشاف حقيقتهم. الرّجال الذي يناقشونها هي وكل نساء القرية لم يهتموا إذا سمعتهم أم لا. كانوا يعلّمون أنّها لن تفهم ما يتحدّثون عنه. كانوا يتحدّثون عنها، يقررون مصيرها، في عمر لم تعرف أو تتمكن فيه من فهمهم. ومع ذلك، هناك في لاوعيها ظلّ تل الأرضة، وهي مسجونة فيه، بدينة بلا جناحيْن، وساكنة، ملكة البرج المعتم. على

كرسيي في الكنيسة، ما يزال آدم ممسكاً بيدي، أنظر إلى قدمي الطّفلة وهي تبتعد عن الرّجال المسنين الجالسين على التّراب، وهم يتجشّؤون اكتفاء من الشّراب. تركل حجراً بتراخٍ. هناك رونق في مقصدها ولا تردد في ثباتها.

الفصل الثّامن عشر:

إيفيلين- تاشي

سألتُ ماما ليسّا: وماكان رأيك، عندما خرجتُ من معسكر ميبيل وطلبتُ «الاغتسال».

ـ ظننتُك حمقاء، قالت دون تردد. حمقاء ومعتوهة.

ـ ولماذا؟ سألتها.

ـ لأنّه، وقبل كل شيء، لم تكن هناك نساء غيرك في المعسكر. ألا تملكين عينين في رأسكِ؟ ألم يخبركِ أحد عمّا يعنيه غياب المرأة؟ أم إنّك منغلقة على ذاتك فلم تلحظي؟

ـ كنتِ هناك، قلتُ لها. وأنتِ من أخبرتني أنّ النّساء الأخريات كنّ جميعاً في غزوات التّحرير.

ـ هه! ضحكت ساخرة. لقد كذبتُ. المعسكر ذاته هو ما يحتاج التّحرير. عندما عادت النّساء كان الرّجال يتوقّعون منهنّ الطّبخ والتّنظيف ـ والهلاك ـ تماماً كما كنّ في المنزل. عندما شاهدن كيف كان الحال، غادرن. حتّى أنا كنتُ لأغادر، قالت ماما ليسّا وهي تنظر للأسفل إلى قدمها الكسيحة.

ضحكَتْ فجأة.

ـ أرسلوا في طلبي، كما تعلمين، كما أرسلوا في طلبكِ، وأرسلوا لي حماراً لأركبه أيضاً. كانوا يشيّدون قرية أولينكية تقليدية ليحاربوا منها، ولذلك احتاجوا إلى التّسونغا.

ـ طلبوني؟

ـ لتمنحي التّسونغا عملاً تفعله. لتحققي للمجتمع الجديد أهدافه.

ـ والذي جعلني، قلتُ، مبغوتة.

ـ والذي جعلكِ كذلك ـ هسهست ماما ليسّا ـ تستلقين على سجّادتك من الحصير، وتصنعين سجّادات أخرى من الحصير. العمل ذاته الذي قامت به جدة ـ جدة ـ جدّتكِ!

ـ لكنّك شجّعتني، قلتُ لها بألم وحيرة.

ـ هل تحتاج الحمقاوات إلى التّشجيع؟ ـ سألت وهي تنظر للسّقف ـ إنّهن يشجّعن أنفسهن.

ـ لكنّ قائدنا أمرنا... أنا أفكّر بأفكار سريعة للدفاع عن نفسي. لكنّ ماما ليسّا أسرع منّي.

ـ ألم يحتفظ قائدنا بعضوه؟ هل هناك دليل واحد على استئصال إحدى خصيتيه؟ للرّجل أحد عشر طفلاً من ثلاث زوجات مختلفات. أعتقد أنّ هذا يعني أنّ أعضاء الرّفيق الحسّاسة كانت سليمة.

قلت لها: يرعبني سماع وجهة نظر غير محترمة كهذه عن قائدنا. يا ماما ليسّا، خلف الوجه الطّلق الذي تظهرينه لأولئك القادمات لتسألنك عن التّقليد، لسان بذيء.

أجابتني باستهزاء: حتى أطيب مانجا صار مذاقها مرّاً في فمي. لكنّ النّساء يجبن دعوة من يبتسم لهن. لا يلقين نظرة على ما وراء الوجه الطلق. يبتسم الرّجال لهن أخبروهن أنّهن سيكنّ جميلات إذا بكين، فطلبنَ إحضار السّكين.

ـ شيء ما يخيفهن. وأنتِ خاصة، لا يمكنكِ نكران هذا.

ـ أكبر مخاوفهن هو إجبارهن على قتل بناتهن، قالت بغضب. حتى لو كان هذا يعني موتهن تقريباً في أول مرة يقتحم فيه رجل أجسادهن، فستخبر الأمهات بناتهن أنّه ألم بسيط. الألم ذاته الذي تشعر به باقي النّساء، وبالكاد ستلاحظنه، سيتوقّف ولن يتذكرنه مع مرور الوقت. إذا أخبرتهنّ بما سبق فمن المحتمل ألا يكرهن أبناءهن الذّكور.

ـ بسبب الألم الذي يكابدنه.

ـ أجل، الدّخول بابنة رجل آخر، كما يدخل ابن امرأة ببناتهن.

ـ لكن الأبناء لا يعلمون شيئاً عمّا يحدث للنساء. كل ما يعرفونه هو أنّ عليهم أنْ يكونوا رجالاً بما يكفي ليدخلوا جسد المرأة. هم أنفسهم يتألمون وهم يحاولون عادة. تعلّمتُ هذا من آدم ـ قلتُ لها ـ حيث كان والدهم يعالجهم من الرّضوض والتّمزق.

نظرت إليّ ماليسّا ببرود.

تلوّيتُ تحت نظراتها.

قلتُ لها: لكان ذلك صعباً على آدم وعلي. لقد خِطْتني بشكل ضيّق، فتحة لا تدخل منها نملة.

أوه ـ قالت ماما ليسّا ـ لم تكوني ضيّقة بهذا القدر! بينما يدفع النساء المال لتسونغا لتجعلهن أضيق من ذلك! بعد كل مولود يقمن بالتّضييق. أكثر من مرّة، مرّتيْن، ثلاث مرّات يقمن بذلك. وكل مرّة أضيق من قبل.

ـ لكنّه مؤلم بشكل كبير، قلتُ.

ـ العاهرات معتادات عليه، قالت لي. وهذا صحيح، كما تعرفين، فالرّجال يحبونه ضيقاً. العراك. لا تعتقدي أنّ المرأة لا تستمتع أيضاً، قالت ماما ليسّا.

قلتُ لها: لم يحدث هذا لي.

أجابتني: هذه خطأك أنتِ. المتعة التّي تتلقّاها المرأة مصدرها عقلها. يرسل العقل إشارات إلى أي موضع يلمسه العشيق.

ـ إذن، فلماذا يدمر فرجها تحديداً؟ «تطهّري»، كما يقولون، «تنظّفي»، سألتها. ولا يتكلمون عن كتفيها أو عنقها؟ ولا حتى نهديها؟

بينما تتمعن ماما ليسّا في السّؤال، تذكرت إحساساً كنتُ قد نفيته.

ـ لقد استمتعت، مرة أو مرتين، بعد «تطهري» أخبرتها.

ـ حقاً؟ قالت.

ـ لكنّ متعتي ملأتني بالخزي.

قالت ماما ليسّا: آه، لقد أتاك من الخلف. هذا ما يفعله الفتية ببعضهم البعض لحين الإعلان عن مهر الفتاة، وهذا يأخذ وقتاً طويلاً، ماذا تعتقدين أنّهم سيفعلون؟

قلت لها: لقد أغضبني تمتّعي. جعلني أكره زوجي.

ـ فيه متعة، أليس كذلك؟

ـ شعرتُ أنّي صرتُ شيئاً آخر غير ذاتي.

قالت ماما ليسّا: صرتِ امرأة! لا يجعلُ الرّجل رجلاً إلّا أنْ تكون المرأة امرأة. تعرفين هذا حتماً!

ـ كان زوجي رجلاً أصلاً.

أردفت ماما ليسّا: صحيح، لكن لعلّه لم يعرف ذلك.

الفصل التّاسع عشر:

أوليڤيا

في السّجن، بما أنّ موعد تنفيذ الحكم قد تحدد ورُفض طلب الالتماس؛ ولم تنطق أمريكا بكلمة، باتت تاشي تُعامل كضيفة تمّ إكرامها أكثر من كونها قاتلة مدانة. أتيحت لها بين جدران السّجن حرّيتها. قضت أيامها الأخيرة بانشغال. هناك زيارات من مجموعات نسائية وأخرى من الإعلام الغربي؛ مصوّرون من كل أنحاء العالم جاؤوا ليلتقطوا صورا لها.

وخلال هذا كلّه، امتلأت نضرة، وجهها الحذر بات لطيفاً ومشرقاً، غاضباً ومشمئزاً على التناوب. تعمل معي كل صباح في طابق الإيدز، تطعمهم، تغسلهم أو تلمس المرضى على الأقل. المكان مزدحم كثيراً هناك وبالكاد توجد مساحة للتقرفص على السّجادات. تولّى آدم والفتية مسؤولية إطعام الأطفال، وجلب الطّعام السّاخن من مطبخ منزلنا المستأجر. في هذا راحة لآبائهم وإخوتهم الكبار، أولئك الذين تركوا مرضاهم، وهم يعبرون بشدة بأعينهم عن امتنانهم.

لا يملك أي شخص فكرة عن سبب مرضه. هذا أصعب ما في الأمر. أن تشهد على عدم إدراكهم وصبرهم المؤقت إذ ينتظرون الموت. إنّه جهلهم الذي يشبه جهل الحيوانات واستسلامهم الذي يغضب تاشي أكثر، ربّما لأنّها تتذكر نفسها. إنّها تطلق عليه باحتقار الدّور المخصص للإفريقي: أنْ يعاني ويموت، من دون أن يعرف السّبب.

لماذا ينتقل المرض إلى المثليين من الرّجال ومتعاطي المخدرات بالوريد

فقط في أمريكا، تريدُ أنْ تعرف، بينما عدد النّساء اللائي يفقدن حيواتهن هنا يساوي عدد الرّجال؟ من ينقل المرض للأطفال؟ لماذا يتجاوز عدد المصابات من الفتيات الصّغيرات الأولاد؟

ينكر الأولينكيون الأثرياء حدوث أي خطأ. إنّهم يُبقون أقاربهم المحتضرين في المنزل. نشاهد الفقراء حصراً. أمّ مهزولة تدخل مترنّحة حاملة على ظهرها زوجها الضّاوي ذا الخمسين رطلاً، بينما يتبعها أطفالها. إذا كان هناك شاغر على الأرض - إذا مات شخص ليلاً - فستحصل هي وأسرتها على هذا المكان. وإذا لم يمت أحد، فيجب أن توجد مكاناً بطريقة ما في الرّدهة أو على بسطة الدّرج. يموتُ النّاس بسرعة، فور أن يصلوا إلى المكان، وقد انتظروا وقتاً طويلاً قبل أن تُمدّ لهم يد المساعدة. ويصبح موتهم بركة لأهالي الضّحايا المعوزين الذين قطعوا مسافات طويلة بحثاً عن الدواء والعلاج.

يعرفون عند هذه المرحلة بأنه ما من علاج. ولا دواء أيضاً، أو طعام لشحّه. مرق مرتان يومياً.

من بين المبتلين هناك طلبة يؤمنون بوجود مؤامرات ضدّهم، حاكها الغرباء، أو حكوماتهم. من المحزن مشاهدتهم يموتون: أطباء بلدهم المستقبليون، وأطباء الأسنان، ونجّارون، ومهندسون، وآباء وأمّهات بلدهم، والمعلمون، والرّاقصون، والمغنّون، والثّوار، والشّعراء.

يقضي آدم معظم وقته وهو يتحدّث مع الطّلبة والمثقّفين. يخبرهم أنّه سمع أنّ أناساً في بلد مجاور نقل إليهم علماء المرض عبر حقنهم بلقاح ملوّث ضد شلل الأطفال. صُنع اللقاح من مزرعة مصدرها كُلية القرد الأخضر. اللقاح - ورغم الاعتقاد بأنه وقائي ضد شلل الأطفال - لم تتمّ تصفيته، وحمل معه فيروس نقص المناعة المسبب للإيدز.

لم يؤيد أحد الطلبة المحتضرين هذه النّظرية. هذه ليست القصة التّي سمعتها، قال. سمعتُ أنّ الإفريقيين أصيبوا به من أسنانهم لا من كلى القرود الخضراء! هناك أصوات تعبّر عن السّخط من هذه النّسخة الحديثة من قصّة الكلب الذي عض بشراً. ختم المثقفون حديثهم بأنّها تجربة علمية حتماً، كتلك

التي أجروها على الرّجال السّود في ألاباما، والذين حُقنوا بالفيروس المسبب للزّهري، وأجريت الدّراسات عليهم أثناء مرضهم وبعد موتهم. تجربة من النّوع الذي لن يخاطروا بتجربتها على الأوروبيين أو يُخضعوا لها الأمريكيين البيض. أن يموتوا ولديهم هذا الاعتقاد: أن الرّوح الإفريقية قد خُلقت للتجارب، وهي قابلة للاستهلاك، هو أكثر مما أطيق سماعه.

تاشي مقتنعة من أنّ الفتيات الصّغيرات المحتضرات، والنّساء أيضاً، تنقل لهنّ العدوى عن طريق الحجارة المسنّنة غير المغسولة، وغير المعقّمة، وأسطح العلب الصّفيحية، وشظايا الزّجاج، والأمواس الصّدئة والسّكاكين الملوّثة، والتّي قد تستخدمها التّسونغا لختن عشرين طفلة دون تعقيم الأدوات. هناك أيضاً حقيقة أنّ كل تواصل جسدي تقريباً يحمل معه تمزّقاً ونزفاً، خاصّة لدى النّساء اللائي في مقتبل شبابهن. الفتحة التي تتكون لن تتسّع حجماً لوحدها البتّة، ويجب أن تتسع غصباً. ولهذا، تشيع العدوى والتّقرحات الجلديّة.

الاتصال الشّرجي يقتل النّساء أيضاً، يقول آدم بحزن. ذات يوم وبعد موت سيّدة متعرّقة الوجه وذات عينين حزينتين، انفعل زوجها، وأصيب بالمرض أيضاً، وضّح لآدم أنّ ورغم مضي ثلاث سنوات على زواجهما إلّا أنهما لم يرزقا بأطفال، لأنّه لم يستطع القيام بواجباته الزّوجية كما يفعل الرّجل عادة مع زوجته. بكت كثيراً ونزفت. كان يحبها ـ كما قال له ـ لكن ليس كرجل. خوفه من أن يسبب لها الألم كان ثمنه عدم الإنجاب. لم يفهم أن طريقة معاشرته لها كانت عاقبة وخيمة له ولها، فقدانها لحياتها. رغم أنّها زوجة من بيْن أربع زوجات أباح له الإسلام والرّسول الارتباط بهن، إلّا أنّها تبدو وكأنّها الزوجة الوحيدة التّي ارتبط بها، قال وهو ينتحب؛ فهي الوحيدة التّي كانت قادرة على إسعاده. حتّى اسمها «هابي» له معنى كلمة سعيدة كما في الأمريكية.

أوليڤيا

ـ لكن لماذا اعترفتِ؟ سألتُ تاشي. أعرف أنّك لم تقتليها. لا يمكن أن تفعلي ذلك.

قالت أوليڤيا وهي تضحك ملء شدقيها: سيقتلني التقدّم في العمر. ما من شيء في هذه الحياة أرغب في رؤيته. التّجارب التّي مررت بها أكثر من كافية. أضافت بجدّية: لعلّ الموت أسهل من الحياة، كما الحمل أسهل من الولادة.

تاشي

ـ لكن يا تاشي، قالت أوليڤيا، وهي متعلّقة بعنقي: لا تفعلي هذا بنفسك وابنك وآدم. لا تفعلي ذلك بي أنا.

قلتُ لها: يا أوليڤيا، أصغِي لنفسكِ. ستتذكرين حتماً أنكِ قلتِ هذه الكلمات من قبل.

بُهِتَتْ.

عندما كنتُ على الحمار، نصف عارية، ذكّرتها بالموقف.. في طريقي إلى معسكر ميبيل.

ـ صحيح، صاحت باعتدال. وانظري إلى النّتيجة. دفعتِ حياتكِ ثمناً لعدم الإصغاء لما قلتُه لك.

ـ وأنوي الاستمرار في دفع الثّمن، قلتُ لها. تساءلت: لكن لماذا؟ سامحيني على هذا الكلام رجاء، لكن يبدو لي ذلك سخيفاً.

ـ لأنّي عندما أعارضكِ، أنت يا أتيها الغريبة، فأنا أحافظ على ما تبقى من ذاتي، وذلك الجزء القيّم من ذاتي هو كل ما أملك، وحتى لو كان ذلك خاطئاً.

قالت: سيقتلونك، وأنتِ بريئة!

أجبتها: صحيح. بريئة وغير بريئة.

ـ أنا محتارة، قالت وهي عابسة.

ـ أصبتِ يا أوليڤيا، في أنّي لم أقتل ماما ليسّا. أخبرتها أنّي ممتنة على ثقتها فيّ. ماتت ماما ليسّا بتأثير قوتها، والتّي، حتى النّهاية، كانت لا يستهان بها،

وكأنّها صارت أقوى، بدل أن تضعف مع التّقدم في العمر. كانت قواها شريرة، بالكاد استخدمتها في الخير. أنا مذنبة للمعاناة التي سببتها، ولأنّي لم أقتلها. بالمناسبة، لا أريد أنْ يعرف هذا أحد.

ـ ماذا؟ أنّكِ لم تقتليها؟ ولماذا؟

ـ لأنّ النّساء لسن جسورات، ولا نحتاج أحداً ليذكرنا بهذه الحقيقة.

ماما ليسّا

موتُ أختكِ ـ ما كان اسمها؟ كان خطأ أمك نافا الغبية. لم تكن رغبة القائد في ممارستنا للختان من جديد قد تبدّت. في النّهاية، كان يبتسم دائماً ابتسامة عريضة في وجوه المبشرين البيض ويخبرهم أنّه رجل معاصر. ليس بربرياً ـ وقد يكون كذلك ـ لأنّهم اعتبروا «التطّهر» عملاً بربرياً. قالوا إنه القائد، وبإمكانه إيقاف هذه الممارسة، وقد أوقفها تماماً، ليبرهن لهم أنّه القائد. قراراته ليس لها علاقة بنا. سمع أحدهم صوت صراخ نسائه عندما حان وقتهن. هل اهتم بذلك؟ لا. زوجة كل شخص ستصرخ في الوقت المناسب.

أجبتها أنّ اسمها كان دورا. كانت صغيرة الحجم، ونحيفة، وكانت هناك ندبة على شكل هلال فوق شفتها العليا تماماً، وكانت تنزلق نحو وجنتيْها إذا ابتسمت.

قالت ماما ليسّا: بإمكاني الكذب، وإخبارك أنّي أتذكرها. بعد كل هذه السّنوات من ممارسة الختان، الوجوه هي آخر ما أتذكره. لكن إذا كانت خنثى فقد أتذكرها.

ـ لم تكن كذلك ـ أجبتها ـ أعتقد أنّها كانت طبيعية.

ـ كلهنّ طبيعيات مهما كنّ، قالت ماما ليسّا.

ـ لم تَخْلقيهن، من أنتِ لتحاكميهنّ؟

ـ أنا لا أحد، تأكدي من ذلك، قلتُ لها.

ـ توقّفي عن الشّعور بالأسى على نفسكِ! قالت. أنتِ كأمّك. ثمّ

أردفت: إذا لم تتطهّر دورا، فلن يتزوجها أحد. يبدو أنّها لم تلحظ أنّ أحداً لم يتزوجني قط، ومع ذلك ما زلت على قيد الحياة. حدث هذا قبل مغادرة المبشّرين البيض. التّطهر لم يقتلني، قالت. ولطالما كان زوجي صبوراً عليّ. حسناً، أطلقت ماما ليسّا صوتاً كالخوار، اقتسم والدُك نفسه على زوجاته السّت؛ ولذلك يمكنه التّحمل.

ما أن سمعتْ أنّ المبشّرين الجُدد سود البشرة، كانت واثقة من أنّ القرية ستعود إلى سابق عهدها وأنّ الفتيات اللائي لم يُختن سيعاقبن. لم تستطع تخيّل أسود لا يكون أولينكياً، وظنّت أنّ كل الأولينكيين يجبرن فتياتهن على التّطهر. نصحتُها بالانتظار. لكنها لم تفعل. كانت من صنف النّساء اللائي يقفزن فزعاً حتى قبل أن يصرخ الرّجل قائلاً «بوو». ساعدتني أمك في تثبيت أختكِ.

ـ توقّفي، قلتُ لها. حتّى لو كانت تكذب ـ صرتُ أعرف الآن أنّها تفعل ذلك غالباً ـ فلا يمكنني تحملها.

لكنّها قال: لا، لن أتوقف. أنتِ مجنونة، لكنكِ لستِ مجنونة بما يكفي. لم تعتقدي أنّ أمكِ ستخبركِ أنّ دورا قد ماتت؟ لم تفعل، أليس كذلك؟ كانت فتاة من بين مائة يجعلهن أقل خدش ينزفن كبقرة. لقد لاحظتْ هذا حتماً، من محاولة وقف النّزيف الذي يصيب أختك وهي تلعب. كان هذا شيئاً فكّرتُ فيه عندما طهّرتُك.

قلتُ لها: ومع ذلك لم تنطقي بحرف، رغم أنّكِ كدتِ أن تقتليني كما قتلتِ دورا.

قالت ماما ليسّا: جئتِ من مكان بعيد، وهذا غباء منك. إلى جانب أنّي لم أكن أهتم حينها.

الفصل العشرون:

آدم

ـ اسمع اعترافي أيّها الأب.

أخبرتُ ذلك الشّاب عبثاً أنّي لستُ قسّيساً. كان ينتظر موته بين الآخرين، منذ زيارتنا الأولى لتاشي في السّجن. وجهه مغطّى بجروح بنفسجية، أصلع الرأس، بارز العظام وهزيل البدن. ما ميّزه عن الآخرين منذ البداية ـ عندما اقتربتُ منه لأسمعه ـ كان مصراً على أنّه طالب في كلية طب: «سنوات طوال في الجامعة» قال باختلاج طفيف في يده. ورغم أنّه أصبح أوهن بدناً، وعيناه البنيّتان مشبعتان بالخوف، إلّا أنّه كان يتكوّر ورأسه بين مرفقيْه المتصالبيْن. كان يظل على هذا الوضع الغريب، ويئن لساعات؛ حتى يسقط من أثر الإعياء أو دفع شخص مرّ بجانبه.

لطالما رفضتُ مخالطة الضّحايا. كما لو أنّ قلبي، تحت ثقل معاناتي الخاصّة، قد شهد على كثير من انهيارات البشر، قد تبلّدت مشاعره.

رغم ذلك: اسمي هو هارتفورد، قال بتقطيب ليلائم تعبير وجهي. وبسبب ارتباطات غير متوقعة استدعاها اسمه: (حيوان الإلكه، مدينة أمريكية في كونيكتكت وشركة تأمين)، ابتسمتُ. بدا مأخوذاً بابتسامتي، كما يفعل الأطفال بهذه الاستجابة، وبدا أنّها أمتعته، كما يحدث للأطفال مع الحلوى. وبأعجوبة سحب يده التي مزّقت كمّي كمخلب، ووضعها على شفتيه المتشققتين غير الباسمتين.

كل شيء قاله وفعله كان بطيئاً؛ مضت عدّة دقائق قبل أن يتحدّث من جديد.

قال هامساً: فيما مضى في سالف الزّمان، كان هناك تجانس أكبر في العالم بين الإنسان وسائر المخلوقات. سمعتهم يقولون ما سبق، لكن كيف لي أن أتأكد؟ في زمن ليس ببعيد أُسرنا وقتلنا أو سرقنا من أرضنا وعائلاتنا لنعمل عند أشخاص تفصلنا عنهم البحار. اصطادونا، كما نَصطاد القردة والشّمبانزي.

حينئذ تنهّد هارتفورد وأغلق عينيه. نضحت بشرته بالعرق، كما لو أنّ جسده صار نافورة فجأة. مسحت جسده بالمنديل الممزّق الذي معي، وعندما توقّف التّعرق، وضعتُ يدي على ركبته المتورّمة، والتّي، كانت بارزة تحت جلد قدمه، كجوز الهند الأسود.

قال: يا أبتاه. لستُ طالباً في كليّة الطّب. هذه كذبة قلتها لأنقذ ماء وجهي.

ربّتُّ على ركبته، ولسبب ما تحيّرتُ من عظيم ندمه، كم كان صعباً عليه أن يتقيّأ كلمات العار هذه. لكن لم أهتم صراحة.

ـ أن أكون طالب طب، أن أصبح طبيباً، كان مجرد أمنية تمنيّتها، تنهّد قائلاً. عندما عرضت علينا شركة لها علاقة بالصّيدلة نحن الشباب المحليين «مناصب» في مصنعهم، اعتقدتُ أن حلمي كان في طريقه للتحقق.

لم نكن نعرف شيئاً عن هؤلاء الرّجال. كانوا غرباء يرتدون البياض دائماً، كي يبدوا كالأطباء الذي نشاهدهم على التّلفاز والأفلام. لا ينظرون إليك. لقد عرفنا.. شعرنا أننا لم نعد ننتمي لهم أكثر مما كانوا ينتمون إلينا، و كم نحن غرباء بالنّسبة إليهم. كانوا يذكّرونا بذلك، كلّما اصطدنا القردة والشمبانزي. ما طلبوه ليس بأمر جديد. باستثناء توفّر المال الآن، وبلا شك سيتوفّر اللّحم غالباً.. لنأكله ونبيعه.

وهكذا بدأنا.

في البداية كنت في الغابة المطرية، اصطاد مع شباب آخرين. أحببنا

بنادقنا. قيّدنا وسحبنا مزيداً من القردة والشمبانزي إلى المصنع أكثر مما كانوا يملكون. بدأت أتآلف مع القردة والشّمبانزي، وأحيانا أقلّد سلوكها وحركاتها: الأم تحمل صغيرها على ظهرها دائماً، ويد الصّغير تلامس صدرها، والأب في عراك مستمر، لكنّه يصرخ محذراً الآخرين ليهربوا. إذا اصطدنا شريكته وابنه، فسيلحقنا عن قرب غالباً ولعدم اهتمامه بسلامته يسهل إطلاق النّار عليه. هذا ما كنّا نفعله عادة، ونحن نضحك.

لا توجد فائدة له على أي حال. أخبرتنا شركة الصيّدلة بهذا، وسرعان ما شاهدنا السبب بأم أعيننا. كانت الحاجة للإناث والأطفال فقط. وبعد وقت قصير، لم تكن هناك حاجة لأي قردة جديدة أو شمبانزي لأنّ المصنع قد اكتمل أخيراً. الفتية المحليون وأنا ملأناه. بمساعدة عدد قليل من الذّكور، أُجبرت الإناث على التّوالد في أقفاص بالكاد تتسع للتزاوج.

ابتلع هارتفورد ريقه. حملت كأساً من الماء المحلى لشفتيه. ارتفع بؤبؤا عينيه فجأة وسقط رأسه إلى جانبه. نبضه، عندما أمسكت بذراعه، كان ضعيفاً كنبض جنين في رحم أمّه. فتح عينيه أخيراً.

ـ كانت تُربّى من أجل كُلاها[1] قال بتأن، وبوتيرة واحدة. وبما أنّه لم تعد هناك حاجة لاصطيادها، أوكلت لي مهمة قطع رؤوسها.

توقّف عن الحديث. عيناه عاصفتان، وقويتان، وواسعتان بحيث يمكنهما ابتلاعي.

ـ صراخ القردة ـ قال وهو يتأمل ويدرس وجهي، كما لو كان يقرأ تغيّراً غامضا فيّ ـ لا يشبه في الحقيقة صياح الطّاووس، والذي كما تعرف بشري جداً. لكن لسبب ما، بسبب وجوه الشمبانزي والقردة، فإن صراخها أكثر بشرية. كل ما يفكرون فيه ويهابونه، ويشعرون به، واضح كما لو أنك تعرفهم طوال حياتك. كما لو أنّك شاركتهم السّرير!

ـ لا تزعج نفسك، قلتُ له بلطف، بشيء من الانفصال. حتى هذا الرّعب لم يتغلغل إلى مستوى التّخدر الذي استكنت إليه. قلتُ لنفسي:

1- جمع كلية. المترجمة.

من أين له التّنبؤ بشر المدنية، وقد لُقّن منذ ميلاده أنّ يصدّق أنّها المستقبل الوحيد.

ـ كانت مساحة المصنع هائلة. شاسعة. كونهم يصنّعون اللقاح ليبيعوه لجميع دول العالم. اكتشفتُ هذا عندما قرأت بعض المنشورات التي استلموها مكتوبةً بالإنجليزية. كُتب أغلبها بلغة أخرى، لعلّها الألمانية أو الهولندية. ومن ناحية أخرى، كان في الموقع أمريكيون، وأستراليون، ونيوزلنديون. زملاء مخلصون، ومتحمّسون دائماً؛ كما لو أنّهم في طريقهم لاكتشاف علاج لكل البشر.

هزّت نوبة سعال الآن جسد هارتفود المنهك. رذاذ من الدّم والبلغم غطّى الخرقة التّي قرّبتها من فمه.

ـ ابتسمتُ بغرور، أول سنة عملتُ فيها لديهم، قال وهو يستلقي، ليرتاح بعد نوبة السّعال. كانوا يدفعون لنا أجوراً مناسبة، وبالطّبع أكلنا أو بعنا هذه الحيوانات التي صارت لحماً خارج اهتمام العائلات التي اختطفت منها. وسرعان ما عجزتُ عن الابتسام. وقفتُ منهمكاً وأنا أقطّع رؤوس القردة، وأجساد الشمبانزي...

صبية صغار يحملون سكاكين صغيرة تم تدريبهم على التّقطيع الطّولي... وسحب الكلى خارجاً. على هذه الكلى زرع الرجال الذي يرتدون المعاطف البيضاء «مزارعهم»[1] القيّمة.

يخرج اللقاح من النّاحية الأخرى من المصنع غير تلك التي تربى فيها القردة والشمبانزي وتذبح. يغادر في قوارير صغيرة صافية عليها ملصقات ناصعة البياض وأغطية معدنية لامعة.

أمسى صوت هارتفورد بالكاد مسموعاً، استحال حشرجات مهموسة، ملمح مما كان يصفه غزا عقلي بلا مقدمات. أغمضتُ عيني بشدّة لأطرد

1- cultures: ثقافات أو مزارع. تتلاعب ووكر بالكلمة كما لو أن مزارعهم هي ثقافتهم. المترجمة.

المشهد. تأخرتُ كثيراً. أحسست كما لو أنّ عالماً آخر من الأسى والتفجع قد سقط على روحي توّاً. توجعت بكرب، كما فعل تقريباً. فاجأني صوت حزني. لكن، ولحسن الحظ، أعتَق حزني هارتفورد.

قال لي: شكراً لك يا أبتِ على سماعك اعترافي، متلقفاً مظاهر ألمي بالدهشة ذاتها التي تمتع فيها بابتسامتي. وكأنّه كان ينتظر حتى يتأكد من أنه نقل الرعب إلى شخص ما زال بإمكانه الإحساس. بدأ هارتفورد يتنفس الصّعداء، هسهسة وأزيز يعرفهما جميع من في طابق الإيدز تمام المعرفة.

كانت هناك أشياء لأفعلها. سأفقد في الصّباح زوجتي وصديقتي إلى الأبد. أين ابناي؟ تساءلتُ. أو أختي أوليڤيا، التي اعتمدتُ عليها دائماً لتكون إلى جانبي؛ وكانت هي من لاحظت العويل الذي سيلطّخ حياة زوجتي. لعلهم كانوا مع تاشي. لم أستطع الحراك لأبحث عنهم. جلستُ في مكاني، حتى بعد ساعة من بدء الحشرجات في حنجرته. هارتفورد الذي أخفى اسمه الإفريقي إلى الأبد، طالب طب وقاتل القردة والشمبانزي، مات.

ورغم أنّي لست كاهناً، فأنا مؤمن، حتى الآن. لا أطيق وجود حياة خالية من الإيمان. لكن هذا ما أعرفه: لا يوجد جحيم ليخافه الإنسان أعظم من الذي على الأرض.

تاشي- إيڤيلين- السيّدة جونسون

اعترفتُ لأنّ المحاكمة أرهقتني إرهاقاً شديداً، ولأنّي تقزّزتُ من الجلوس إلى جانب محاميي. كان متأنقاً دائماً؛ بطريقة مثالية، ويفوح منه عطر أراميس. أحب الصّوت الخارج من فمه. كما أزعجني المحامي الخصم.

أنا كبيرة في العمر، بعمر جدّتك. قلت لنفسي، وأنا أشاهد تبختره مختالاً، وهو واقف هناك يجادلهم في موتي. في الواقع، جعلني ذلك أشفق عليه، وأراه أحمق.

قلتُ لمحاميي، في لحظة لم يكن يدوّر فيها إحدى تموجات شعره الدّهنية بأصبع عليه خاتم، دعني أقف على المنصّة. ورغم أنّه لم يؤيد هذه الخطوة، إلّا أنّي أقدمت عليها على أي حال. وما إنْ جلستُ، وحتى قبل أنْ يجلبوا الإنجيل، قلتُ بصوت جهير وجلي حتى لا يكون هناك أي لبس: أنا من فعل ذلك.

- كيف فعلتِ ذلك يا آنسة جونسون؟ سألني القاضي الذي بقربي.

قلتُ له: هذا ليس من شأنك.

لكن هل تعتقد أنّ اعترافي قد أوقف المحاكمة؟ لا لم يوقفها. فلأيام بعدها كانت هناك أقاويل عن العثور على سكاكيني في رماد بيت ماما ليسّا، وتخمينات عن الطريقة الدّموية التّي اخترتُها لتشويهها والتّخلص منها. اكتشفتُ أنّ مخيّلتهم أكثر اضطراباً من مخيلتي.

الفصل الحادي والعشرون:

تاشي- إيڤيلين

علمتُ من مباتي أن الإفريقي أو الإفريقية لا يطلقون على منزلهم اسم «كوخ».

ـ «كوخٌ» قالت لي، هي الكلمة الهولندية «للعرزال» والإفريقيون ليسوا هولنديين.

أنا أم هذه الابنة، وإلا لما كانت لتكون بهذا الوضوح، زهرة زاهية نضارتها لامتناهية في حياتي.

في المساءات تقرأُ لنا فقرات بصوت عال من الكتب لتزيد حيرتنا أو تُمتّعنا. قد تقرأ اليوم من كتاب كتبته مستعمِرة بيضاء عاشت حياتها كلّها اعتماداً على الإفريقيات لكنّها فشلت في اعتبارهن بشراً. كتبَتْ: «السّود طبيعيون. إنّهم يملكون سرّ البهجة الأكيد، الذي مكّنهم من البقاء على قيد الحياة رغم المعاناة والذّل الواقعين عليهم».

حدّقت مباتي فيّ بنظرة كدرة، وبادلتها النّظرات.

ـ لكن ما هو؟ سألتُ. سر البهجة هذا الذي كتبت عنه. أنتِ سوداء، وأنا كذلك. إذن فهي تتحدث عنّا. لكنّنا لا نعرفه. أو ـ قلتُ لها وأنا معجبة بجمالها ـ لعلكِ تعرفينه.

ضحكت مباتي. وقالت: حسناً، نحن نساء. يجب أن نكتشف ما هو! خاصّة وأنّها تدّعي فهم شيفرات: «الميلاد، والوطء، والموت» التّي تمكننا من الحياة!

ـ أوه، قلتُ لها. هؤلاء المستعمرون أكلة لحوم بشر. لماذا لا يكتفون بسرقة أرضنا فقط؛ استخراج ذهبنا، واستئصال غاباتنا، وتلويث أنهارنا، واستعبادنا للعمل في مزارعهم، واغتصابنا، وأكل لحومنا؟ لماذا لا يتركونا في حال سبيلنا؟ لماذا عليهم أن يكتبوا عن البهجة التي نمتلك سرّها؟

لم تسألني مباتي إطلاقاً إذا ما قتلتُ ماما ليسّا. لم تظهر عليها أمارات الاهتمام.

ـ ذنبي عظيم. قلتُ لها وهي تهمّ بالمغادرة، بعد أن وعدت بعدم السّماح لي بالموت قبل أن تكتشف سرّ البهجة الأكيد وتطلعني عليه.

ـ حاضر يا أمي. قالتها ببساطة أحرجتني. أستطيع أن أرى أنّك مذنبة. وأنّك لم تخفي ذلك. وهذه أعظم هداياكِ لي.

قلتُ لها: وهذا يذكرني بهديتي لكِ.

ـ هدية؟ تساءَلت.

ـ لقد احتفظتُ بتمثال مقدّس صغير لنياندا ـ هكذا أسميتها. اخترت الاسم عندما أمسكتها بين يدي. غلّفتها بحذر بوشاحي الجميل، ذاك الموشى بالزّرقة والنّجوم الذّهبية المتناثرة في السماء الحالكة، كجسد ربّة إفريقيّة. أخرجتُه من جيبي، حيث وضعته مذ عرفت عن حكم الإعدام، ودسّته مباتي بين يدي.

ـ هذا لحفيدتي، قلتُ لها. دميتُكِ الصغيرة! قالت وهي تلمس التمثال. أنت تعرفين أنّها تشبهكِ. قالت وهي تفتح الغلاف.

قلتُ لها: لا، يستحيل أن تكون لي نظرة الثّقة هذه. نظرة الإباء والسكينة. وليس لأي منّا الحصول عليها لأنّ امتلاك ذواتنا سيكون مستحيلاً دائماً، وعلينا ادّعاءه. لكن لعل ابنتك...

ـ لا أنوي الإنجاب البتّة، قالت. العالم أجمع غادر. هذا التمثال الصغير ـ قالت، وهي تقبّل وجهها اللامع ـ يقف في وجه كل ما حصل. لوّحت بذراعها أمام قبح السّجن، الضوضاء، نتانة جناح الإيدز المنبعثة من الأسفل، ومعرفة أنّ الرّصاص سيطلق علي حتى الموت في غضون ساعات.

ـ أتقولين إنّ علينا الاستسلام للموت؟

ـ أوه، لا أعرف ما أقوله يا أمي! بقيتُ وقتاً طويلاً. يجب أن ترتاحي. عمتي مساء.

ـ سأخلد في نوم أبديّ عمّا قريب، قلتُ لها باستهجان. لكن لا تهتمّي، يجب أن أنال قسطاً من الرّاحة. أريد أنْ أكون متيقّظة غداً، دون أن أغفل عن أي شيء. (أتشي ميبيل) قلتُ لها.

ـ (أتشي ميبيل)؟ كرّرت مباتي كلامي.

ـ أجل، أجبتها. أتشي كلمة يوروبيّة[1] وهي تعني «الإرادة التّي تحقّق الأشياء». الطّاقة. ميبيل تعني «المضي قدماً!» بالسّواحيليّة.

ـ أوه، قالت، وهي تعكس ترتيبها وتنحني احتراماً لي: ميبيل أتشي.

ـ قصصت شعري كي يكون كثيفاً وخفيف الحركة، مثل شعرها. وعندما تعانقنا، بحثت أصابعنا عن شعر بعضنا.

1- اليوربيون: شعب بين نهري النّيجر والفولتا (ساحل العاج). المترجمة.

تاشي- إيڤيلين- السيّدة جونسون

ليزيت العزيزة،

سأواجه صباح الغد فصيل الإعدام لأنني قتلتُ امرأة قتلتني قبل عشرات السّنين. لكن هذا ليس أشد غرابة من كتابتي الآن لهذه الرّسالة لكِ بعد عقد من محاولتك الأخيرة للتّواصل معي، وبعد مفارقتك للحياة. صداقتكِ تُغويني لأنّكِ في عالم الأموات. شعب بالي، كما أخبرنا عمّك ميزي، يعتقدون أنّ الجنة تماماً مثل بالي. إنّهم يحبون بالي، ولهذا لا يقلقهم الموت. لكن إذا كانت الجنّة كأولينكا، أو حتّى كأمريكا، فسيزيد توتّرنا حتماً. أكتبُ لكِ لأني سأرغب في مصاحبتكِ في الجنّة، امرأة فكرتِ بي بصدق.

اعتدت على تفكير أمي بي. لكنّي ارتبطت بمعاناتها ارتباطا وثيقا، ولذلك انشغلتُ أنا بالتّفكير فيها انشغالاً تامّاً. سيْطَرتْ معاناتها عليّ في الواقع. ولأنّي آمنت أنّني وهي كيان واحد. لقد اختلقتُ جزئية أنّها تفكّر بي. كنتُ أفكر في نفسي. في الواقع، لم تكن والدتي مستعدّة، لم يبق لديها الكثير من روحها، لتفكّر بي أو بأختي دورا، التّي نزفت حتى الموت بعد ختان رديء، أو في أي من أطفالها الآخرين. لقد تقمَّصَت دور «تلك التّي تعدّ الحملان للذّبح».

أمن اللؤم قول هذا عنها؟ أشعر أنّه كذلك، لكن فقط قسوة الحياة، والتّكلم عنها، والتّنديد بوحشيتها، سينقذنا الآن. وإذا لم نفعل، فقد يختفي السّود من إفريقيا في زمن أحفادنا، وسيعاني العالم أجمع من أبنائِنا وستستمر لَعنتنا.

آمنت في حياتي كلّها، أنّ كلّاً من آدم وأخته أوليڤيا هما أكثر من فكرا بي؛

هو تزوّجني، وهي صديقتي الصّدوقة. لكن هل تعرفين لماذا نأيت بروحي عن متناول آدم؟ لأنّي ساعدته في إنشاء القسوسة المتجدّدة ـ أكثر تجديداً على أي حال من قسْوَسَة والده والمبشرين الملوّنين ـ في سان فرانسيسكو. جلستُ هناك في كنيستنا كل أحد لخمس سنوات وأنا أسمع آدم ينشر كلمة الحب الأخوي، والتّي تستلهم أسسها من حب الرّب لابنه يسوع المسيح. كنتُ أغضب في كل مرّة يتطرق فيها لمعاناة المسيح. وحيّرني حنقي هذا لوقت طويل. أنا مُحبّة كبيرة ليسوع، ولطالما كنتُ كذلك، ومازلتُ، بدأتُ أرى كيف أنّ التّركيز المستمر على معاناته وحده يستبعد معاناة الآخرين. وفي سنتي السّادسة كعضوة في جماعة آدم، عرفتُ أنّي أريد الحديث عن معاناتي الخاصّة، ورغبت أن تكون معاناة النّساء والفتيات الصّغيرات التي ما زالتُ صغيرة أمام جبروت يتعاظم وأسلحة العذاب، موضوع الموعظة. أليست المرأة هي شجرة الحياة؟ ألم تُصلب هي الأخرى؟ لم تصلب في زمن سحيق لا يتذكره أحد، بل في الحاضر، وكل يوم، وفي كثير من بقاع الأرض؟

في إحدى المواعظ، رجوته إلقاء موعظة واحدة فقط مع أتباعك عمّا حدث لي.

قال إنّ الحضور سيشعرون بالخجل لمناقشة أمر في غاية الخصوصية، وهو على أي حال، سيشعر بالخجل من الموضوع.

تعلّمت تقدير حرمة وقدسية الحدائق حينذاك. مكان فيه مقعد قرب الخضرة، مظلل جزئياً، لكن مشمس غالباً، ولي وحدي. أحبّ صباحات الأحد فيها. السّاكنة. الهادئة. كان العشب يانعاً من حولي، والشمس في غاية الدفء، والبحيرة تتلألأ من بعيد. ومن كيس فيه فتات الدّجاج، أطعمتُ البط.

لقد ختنوا النّساء، اولفتيات الصّغيرات، في زمن المسيح. هل تعرف هذا؟ وهل أغضبه الموضوع أو أحرجه؟ هل مسحت الكنيسة القديمة هذا التّفصيل؟ يسوع بذاته كان قد أُخصي، لعلّه اعتقد أنّ قطعاً واحداً حدث له سيحدث للنساء أيضاً، ولذلك، وبما أنّه نجا، فلا بأس.

ثم تأتي أوليفيا أيضاً. لطالما اهتمت بي كذلك. يستحيل أن أخيب ظنّها.

أخبرتها أنّي لم أقتل التّسونغا ماما ليسّا. لا بل قتَلتُها. وضعتُ الوسادة على وجهها وجلستُ عليها ساعة كاملة. قِصصها التّعيسة عن حياتها جعلتني أفقد رغبتي في جلدها. أخبرتني أنه من التّقليدي لأي تسونغا محترمة أن تُقتل ثمّ تُحرق على يد فتاة مختونة. نفّذتُ ما كان يُتوقّع مني. إنّه مثير للفضول أليس كذلك، أن يعامل المجتمع القبلي التّقليدي بذكاء بالغ التّسونغا بتقدير وكره لها. لكن بلا شك، كانت التّسونغا بالنّسبة لكبار السّن مجرد مشعوذة يمكنهم التّحكم بها، وهي امتداد لسطوتهم.

أمّا بيير فهو هبة السّماء لي. ستفخرين به. عاهدَني على الاعتناء بابني بيني بعد مفارقتي للحياة. لقد علّمه بالفعل أكثر مما كان سيعلمه أساتذته. ليتك تشاهدين بيير ـ قد تشاهدينه، من خلال نوافذ الجنّة التي تبدو تماماً كأطراف العشب، أو الزهر، أو حبوب القمح ـ وهو يحاول تفكيك خيوط الغموض التي جعلتني متشابكة. قال يا سيّدتي بالفرنسية، هل تعلمين أنّ أعظم لعنة في بعض البلاد الإفريقية ليست أن يكون المرء «ابن عاهرة» بل «ابن امرأة غير مختونة؟».

ـ لا، لم أعلم هذا من قبل، أجبته.

قال لي إنّه برهان على شيء أكثر أهمية على أي حال! من هنّ اللائي لم يختن؟ هناك دليل على أنّهن إماء. سبايا العرب الغزاة من بلاد إفريقية أخرى، العرب الذين اجتاحوا القارّة من الشّرق إلى الشّمال. بالأصل هنّ نساء الأدغال أو نساء من غابات إفريقيا المطرية. نحن نعلم أنّهن، صغيرات البُنية، وقويّات، ومنسجمات مع بيئتهن تماماً، أحببن ـ عذراً على صراحتي ـ أعضائهن الطولانية. أو بكلمات أخرى أحببن فروجهن. لدرجة لوحظ فيها منذ ميلادهن تمسيدها و«سحبها». وعندما يصلن البلوغ، يكنّ قد اكتسبن ما سيُعرّف لاحقاً على الأقل بين علماء الأنثروبولوجيا الأوروبيين بـ «مئزر الهوتِنْتوت»[1].

مستعبدات بين أناسٍ لا يلمسون عوراتهم البتّة. تعلّموا أن لمساً من هذا

1- ـ The Hottentot Apron: المترجمة.

النّوع هو إثم عظيم. تلك النّساء بأشفارهن الكريمة وبظورهن السّمينة كنّ يُعتبرن فاحشات. لكن ما هو ملاحظ بشكل أقل لدى هؤلاء النّاس ـ تلك النّساء ـ هو أنّه في مجتمعاتهم القديمة كانوا يملكون أجسادهم، بما فيها الفرج، ولمسوها كما يحلو لهم. باختصار يا سيدتي المحترمة جونسون، المرأة الإفريقية الأولى، سيّدة نساء العالمين، كانت حرّة علانية!

وقائل هذا، يا ليزيت، هو ابنك. ما زلت أجده صغير البنية ليكون رجلاً، لكنّه كبير في تفكيره. في يوم إعدامي، قال إنّه سيكرّس نفسه للعمل الذي شُغف به حبّاً: أنْ يحطم كرمى للنّساء الأخريات وأزواجهن إرهاب البرج الأسود. برجٌ أنتِ من أخبرته عنه.

سألتقيك في الجنّة. أعرف هذا. لأنه من خلال ابنك الذي غدت معاناتي بالنّسبة له لغزاً كابده، التقينا على الأرض فعلاً.

يخطر في بالي أن أسأل الآن عن سبب وفاتك. لو أنّي كنتُ أعرف أنك ستموتين، وستتوقّفين عن الكتابة إلي وعن الوجود في الدّنيا، لكنتُ أوليتك اهتماماً أكبر قبل وفاتك. ومع ذلك، لم أكن قادرة على فهم الموت باستثناء أنّه حلّ بي فعلاً. لم يعد الموت يفزعني. سيكون الإعدام في مكان أُعدمت فيه الحكومة كثراً قبلي، ملعب كرة القدم. سأرفض ارتداء عصابة العينيْن حتّى أرى جميع الاتّجاهات. سأركز على جمال التّلال الزّرقاء البعيدة. وبالنّسبة إلي، ستكون لحظة موتي لحظة سرمديّة.

بوركتِ.

تاشي إيڤيلين جونسون

ستعدم عمّا قريب. ستولد من جديد.

روح تاشي إيڤيلين جونسون

حُذّرت النّساء الواقفات على طول الطّريق من الغناء. الرّجال المتذمّرون يقفون أمامهن برشاشاتهم متحفزين. غير أنّ النّساء سيبقين نساءً. تقف كل امرأة إلى جانب الطريق وهي تحمل زينة حمراء، وطفلاً مقمّطاً بإحكام بين ذراعيْها، وعندما مررت، أسقطن الأغطية. ثمّ رفعن أطفالهنّ على أكتافهن أو على رؤوسهن، الذين راحوا يركلون بأقدامهم العارية، ويبتسمون مستمتعين، أو يصرخون بخوف، وكنّ يلوّحن بأيديهن. إنّها مظاهرة واحتفاء لم يفهمه الرّجال المتوعّدون.

أدركت ذلك في اللحظات العصيبة، ولأنّ يدي مقيدتين، ما استطعت تعديل نظارتي الطّبية، ولذلك كان عليّ إمالة رأسي بغرابة من أجل تحديد موقع التّل الأزرق والتّركيز عليه. وفي غفلة من هذه الحيلة لاحظتُ وجود تلٍّ أزرق عال ماثلاً تماماً خلف النّساء وفتياتهن نصف العاريات، واللاتي يقفن الآن في صفوف على بعد خمسين قدماً منّي. يركع أمامهن معارفي القليلون بوجوههم المتوتّرة. رفعت مباتي لافتة، بسرعة، قبل أن يتمكن الجنود من إيقافها (معظمهم أمّيون، ولذلك رد فعلهم بطيء). حملها كلٌّ من آدم، وأوليڤيا، وبيني، وبيير، وراي، ومباتي بإحكام ونشروها، وقد كُتب عليها بخط عريض وواضح المقاومة هي سر البهجة!

أحاطت بي ضجّة كما لو أنّ العالم قد تصدّع منفتحاً وسقطتُ فيه. لم أعد موجودة. أنا راضية.

إلى القارئ

يقدر عدد الفتيات اللاتي بترت أعضاؤهن التّناسلية اليوم في إفريقيا، والشرق الأقصى والأوسط من تسعين إلى مئة مليون فتاة، وتحذر المقالات الحديثة في الإعلام من التّزايد المستمر لـ «ختان الإناث» في الولايات المتّحدة وأوروبا، بين المهاجرين من دول تعتبرها جزءاً لا يتجزّأ من تقاليدهم.

كتابان جيّدان عن موضوع بتر الأعضاء التّناسلية هما: **يا امرأة لماذا تنتحبين؟** لكاتبته أسماء الضّرير (لندن: دار زد، 1982)، **وسجناء العادة: أوديسة إلى الختان في إفريقيا** لكاتبه هاني لايتفوت ـ كلاين (بينغمتون، نيويورك: دار هارينغتون بارك، 1989)[1]. لمزيد من المعلومات عن كيفية ممارسة بتر الأعضاء في القرن التّاسع عشر في الولايات المتحدة، يتوفّر كتابٌ لـ «جي. جي. باركر ـ بينفيلد» بعنوان: **هلوسات حياة نصف معروفة: سلوكيات الذّكر نحو المرأة والجنس في أمريكا القرن التّاسع عشر** (نيويورك: هاربر ورو، 1976)[2].

ورغم الارتباط الواضح بين رواياتي، إلّا أنّ **امتلاك سر البهجة** ليس

1- Woman Why Do You Weep?, by Asma el Dareer (London: Zed Press, 1982), and Prisoners of Ritual: An Odyssey into Female Genital Circumcision in Africa, by Hanny Lightfoot ـ Klein (Binghamton, NY: Harrington Park Press, 1989).

2- G. J. Barker ـ Benfield's book The Horrors of the Half Known Life: Male Attitudes Toward Women and Sexuality in Nineteenth Century America (New York: Harper & Row, 1976).

تتمّة لرواية **اللون أرجواني** أو **معبد أليفتي**. ليست مرتبطة ببعضها، لأنّ استخدام الرّوائي للشخصيات مرّة أخرى أو التّحوير البسيط للأحداث التّي تصف أحداثاً أو تحيل إلى كتبي السّابقة، هدفه هو تأكيد وتعزيز أهداف هذه الرّواية الجديدة.

وتماماً كرواية **معبد أليفتي**، كانت العودة إلى عالم وأجواء **اللون أرجواني** فقط لاستعارة تلك الشّخصيات والأحداث التّي رفضت مغادرة عقلي أو روحي. شخصية تاشي، التي كان ظهورها موجزاً في **اللون أرجواني** ومرة أخرى في **معبد أليفتي**، رافقتني إلى درجة غير عادية، من خلال كتابة كلا الكتابين، وجعلتني أختم قصّتها بما تريده، وتستحقه، ألا وهو كتاب خاصّ بها.

لقد تجسّدت أمام ناظري.

خلال تصوير فيلم **اللون أرجواني**، بُذِل جهدٌ جدير بالثّناء لتوظيف الإفريقيين لتمثيل الأدوار الإفريقية. إنّ المرأة الشّابة التّي لعبت دور تاشي، والتي كان لديها دور قصير على الشّاشة، كانت كينية من إفريقيا: كانت غاية في الجمال، والظرافة، والجهوزية. مشاهدتها أعادت شخصية تاشي بشكل أوضح في عقلي. ذكّرتني أنّ في كينيا، حتى مع سفر هذه الشّابة من لوس أنجلوس للتمثيل في الفيلم، هناك فتيات صغيرات يخضعن لتشويه الأعضاء باستخدام زجاج غير نظيف، وأغطية قناني، وأمواس صدئة، وسكاكين الخاتنات التّقليدية، واللاتي أسميتهن تسونغا. في الواقع، في عام 1982 ـ سنة نشر **اللون أرجواني** ـ ماتت أربع عشرة فتاة في كينيا من مضاعفات البتر التّناسلي. حينها فقط حظره رئيس البلاد. لكنّه ما زال يمارس سراً فيها، كما يمارس حتى الآن علانية في كثير من البلدان الإفريقية الأخرى.

تسونغا، ككثير من كلماتي «الإفريقية»، مُختلقة. لعلّها بالإضافة إلى كلمات أخرى استخدمتها، تعود للغة إفريقية كنتُ أعرفها في ما سبق، والآن ضاعت في اللاوعي. أجهل من أي جزء من إفريقيا ينتمي أسلافي، ولذلك أخاطب القارّة كاملة. أعتقد أنّي اختلقتُ وجود دولة أولينكا،

وجعلتها قريتي، كما جعلتُ الأولينكيين أجدادي، أسلافي القبليين. وحتما أعتبر تاشي أختي.

جزء من حقوق هذا الكتاب سيخصص لتثقيف النّساء والفتيات، والرّجال والفتيان، عن عواقب التّشويه التّناسلي الوخيمة، لا على صحة وسعادة الأفراد فقط، بل وأيضاً على المجتمع كلّه الذي تمارس فيه، والعالم.

ميبيل أتشي.

أليس ووكر
كوستا كاريس، المكسيك
مقاطعة ميندوشينو،
كاليفورنيا
يناير – ديسمبر 1991.

شـكـر

رغم الألم الذي نشعر به عند مواجهة حقيقة الحياة، إلّا أنني أجد أنّ فترة حياتنا الزّمنية رائعة. هذا لعدم وجود وقت آخر يعرفه الإنسان يكون فيه العطاء واستقبال الطّاقة، والدّعم، والحب أسهل منه لدى أشخاص لم يلتق بهم، وتجارب لم يعشها حقيقة.

أتقدّم بجزيل الشّكر لكل الكتّاب التّالية أسماؤهم: إيستر أوغنموديد، نوال السّعداوي، فران هوسكن، ليلى سعيد، روبن مورغن، أوى تيام، غلوريا ستاينم، فاطمة عبد المحمود وآخرون حول العالم على تطرقهم لموضوع البتر التّناسلي.

وأتقدم بالشّكر لـمونيكا سجو وباربارا مور على الإلهام والتأكيد الذي وصلني من عملهما المذهل: **الأم الكونية العظيمة: إعادة استكشاف دين الأرض**[1]. كما أشكر مونيكا سجو على الأصداء النّفسية والجميلة للوحاتها الفنيّة.

وأشكر كارل جونغ لأنّه ساهم مساهمة حقيقية في علاجي الذّاتي (من خلال القراءة) لدرجة أنّه صار حقيقياً ونشطاً في علاج تاشي. هديّتي له.

وأشكر معالجتي: جين أر. سي.، على مساعدتي لتجاوز بعض عُقدي الشّخصية ممّا مكنني من تناول قضية تاشي بشكل أفضل.

وأشكر ثقافة هويكول Huichol على لوحات الحياكة الرّائعة التي

1- The Great Cosmic Mother: Rediscovering the Religion of the Earth.

أُعجبت بها على مر السّنوات: لوحات حلّقت فيها وفي كثير مما هو ملتبس ومندثر في الحضارة المهيمنة.

وأشكر الطبيبة النّفسية أليس ميلر على كتاباتها القويّة دفاعاً عن الطّفل. وأخصّها بالشكر على: **دراما الطّفل الموهوب، أنت لن تدرك، لـمصلحتك**[1].

وأشكر لويس باسكال على مقاله غير المنشور «**كيف بدأ الإيدز؟**» والذّي عرفني على احتمال أنّ الإيدز قد بدأ من خلال التّفشي بين الأفارقة بسبب لقاح شلل الأطفال.

وأشكر صُنّاع فيلم **وُلِدَ في إفريقيا**[2] على تعريفي بالحياة الجميلة والموت الشجاع لـ «فيلي لوتايا»، عازف أوغندي استخدم موته جراء مرضه بنقص المناعة المكتسبة للتحذير، والتّثقيف، والتنوير، والإلهام وحب أبناء شعبه. هذا الفيديو أكّد لي أنّ التّعاطف الإنساني يكافئ وحشية الإنسان ويرجع لكل منّا أمر التّوازن بينهما.

وأشكر جوان ميورا وماري والش على إعادة تقديم الرّبة في موطني، وعلى البحث، وإصلاح التّسرب، وإبقاء البرّاد مجهّزاً، وحظر الضّوضاء. على الأخذ بيدي وأنا أبحث عن حياة تاشي.

وأشكر روبرت آلن على صداقته.

وأشكر جين وايسنغر على وجودها.

وأشكر ابنتي ريبيكا على منحي فرصة أن أكون أمّاً.

1- The Drama of the Gifted Child, Thou Shalt Not Be Aware, and For Your Own Good.

2- Born in Africa.

المترجمة في سطور

دلال مصطفى نصرالله 1987.
تترجم عن الإنجليزية والإيطالية.
لها إسهامات في ترجمة الأفلام والأوبرات الإيطالية.

من ترجماتها:
ناسك في باريس – إيتالو كالفينو 2017
الملاك إزميرالدا – دون ديليلو 2018
وودي آلن عن وودي آلن – ستيج بيوركمان
امرأة – سيبيلّا أليرامو

أحب أن أروي هذه الحكاية لغرابتها. كنتُ والمخرجة براتيبا بارمر على متن طائرة تقلنا من تاميل إلى أكرا في غانا، غرب إفريقيا، ولم تكن من طائرة سواها، والبديل عنها قيادة السيارة لسبع ساعات على طريقٍ وعرة سبق أن اختبرناها قبل عدة أيام حيث تكبدنا كل ما يخطر على البال من منغصات، وحين وصلنا مقصدنا كان الجوع والحر قد أعيانا وغطانا الغبار الأحمر.

كانت طائرة نقل عسكرية قديمة، مطليّة باللونين البني والأخضر للتمويه. قالت براتيبا إنها أشبه بعلب الصّفيح. خلت الطائرة من المقاعد، وعثرنا على مكان مخصص لأمتعتنا وكاميرات براتيبا الكثيرة، وأحاط بنا المسافرون على متنها مع أطفالهم، ودجاجاتهم، وماشيتهم. كان الإحساس بأن قرية تحلق في الأجواء مبعث طمأنينة في الواقع.

صعقنا مع إقلاع الطائرة اكتشاف أنها لا تحتوي على نوافذ، بل فتحات بلا زجاج أو بلاستيك، مؤطرة بالمطاط الذي يثبت عليه الزجاج عادة. سددنا الفتحات بأيدينا، ثم لاحظنا أنها تطير على ارتفاع منخفض، بضع مئة من الأقدام فوق قمم الأشجار.

لم نتجرّأ على النّظر إلى مقدمة الطائرة لنحدد موقع الطيار، ونحن نسمع ضحكه ومزاحه مع شخص خلفه. أحسب أننا صلّينا. وحدقنا ببعضنا البعض حين تثاقلت الطائرة. قال أحد ممن كانوا معنا: حسناً، ها نحن نقوم بالرحلة الأخيرة، فرادى أو جماعات، فسأله آخر من دون تَردّد: ألا تستحق هذا العناء؟ بلى، أجابه، فنحن في شؤون تتعلق بالأم. إن وقفنا ستساندنا وإن سقطنا ستتلقفنا. ورأينا من حولنا يتبادلون التهاني والابتسامات ويتناقلون أشرطة الأفلام التي التقطتها براتيبا، واللوز، والموز، والفول السوداني. لقد كانت رحلة قصيرة.

ISBN 978-2843091759

لوحة الغلاف: jonathan green